الجزء الثاني

أولاً : الدعوة والتكليف برسالة الإسلام

١ ـ التكليف العلوى: بالمواجهة .

ويأتي التكليف العلوي من المولى سبحانه وتعالى إلى النبي ﷺ .

أن يواجه البشرية ومتاعبها . وتبدأ معركة الدعوة إلى الله . قال تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدّثر].

روى الإمام مسلم من طريق عقيل ، عن ابن شهاب ، عن سلمة. قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : فبينما أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجثيت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلى فقلت:زملونى، فدثرونى. فأنزل الله تعالى : الآيات الموضحة عالية من سورة المدثر .

قال أبو سلمه : الرجز الأوثان . ثم حمى الوحى وتتابع ، وروى البخارى من هذا الوجه أيضاً .. وفى رواية الطبرانى مرفوعة عن بن عباس رضى الله عنهما أن الوليد بن المغيرة صنع طعاماً لقريش فلما أكلوا منه قال : ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فمنهم من قال ساحر، ومنهم من قال كاهن ، وآخرون قالوا ليس بكاهن .. وقالوا ليس بساحر ، وقال بعضهم بل سحر يؤثر.

فبلغ النبي ﷺ ، فحزن وقنع رأسه وتدثر فأنزل الله تعالى الآيات كما تقدم.. والأسباب والمناسبات أمرها في علم الله .... وما نود أن يتناوله الحديث هو ذلك التكليف والنداء العلوى لرسول الله بالجهاد والمشقة لنذارة البشرية وتخليصها من شر الدنيا ونار الآخرة وتحمل متاعبها وأهوالها بطهارة القلب والذات والتكبير والتوحيد لله وحده . .. ثم حمى الوحى وتتابع « هذا لفظ البخارى .. وهذا السياق هو المحفوظ وهو يقتضي أنه قد نزل الوحى قبل هذا لقوله : فإذا الملك الذي جاءني بحراء » وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ

مَالَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق] .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فلما أخبر خديجة الخبر قالت : كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق ـ وانطلقت به رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل فقال هذا هو الناموس الذى كان ينـزل على موسى [1] .

وليست المعركة بالأمر اليسير.. فمن البداية وقف المكذبون فى وجه الدعوة يصدون عن سبيل الله وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة ، والأخنس بن شريق ، وأبو جهل بن هشام الذي توعد بقتل النبي ﷺ إذا عاد يصلي عند المقام .

روى الإمام أحمد عن بن عباس رضي الله عنهما قال : قال أبوجهل لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لأتينه حتى أطأ على عنقه ـ قال لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ... وقيل لأبي جهل ما منعك ؟ قال إن بينى وبينه خندق من نار ، وهولا وأجنحة ، قال رسول الله ﷺ لودنا منى لا اختطفته الملائكة عضوا عضوا [2] .

بدأت المعركة والبشرية فى ضلال وعصيان وعناد وإصرار، ونادى محمد بن عبد الله ﷺ فى بطن مكة وعلى رأس الصفا بأمر من الله مخاطباً الثقلين « الإنس والجن » ومخاطباً الأحمر والأسود ، والعربي والعجمي إني رسول الله ... فأمنوا بالله ورسوله . ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [الأعراف] .

وفى صحيح مسلم عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » .

وفى رواية الإمام أحمد قال عليه الصلاة والسلام : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من

---

(١) ورد بتفسير بن كثير ٤/ ٤٤٠ ، بن كثير ٤/ ٥٢٧، والبداية ٢/ ٥ ، والفتح ١/ ٨١ .

(٢) والبداية ٢/ ٥٤ .

أصحاب النار » .

وفى الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله قال : « قال رسول الله ﷺ أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة»، وفى رواية للإمام أحمد قول رسول الله ﷺ «نصرت بالرعب مسيرة شهر «أي نصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ مني رعبا»، وأحلت لي الغنائم آكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها ـ كانوا يحرقونها ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا. أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت ، وكان من قبلي يعظمون ذلك. إنما كانوا يصلون فى بيعهم وكنائسهم»[1] .

٢ – دعوة النبي أهل الكتاب لدين الله :

وأمر الله رسوله ﷺ أن يدعو الكتابيين والأميين إلى دين الله والدخول فيه .

قال سبحانه وتعالى : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة] .

والكتابيون هم الذين أوتو الكتاب الأول ، واختلفوا بعد ما قامت الحجة ـ والأميين هم الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب .

وقد أخفى النصارى الأساس الأول للدين وهو التوحيد ، والكفر فى قولهم إن الله هو المسيح ابن مريم أو هو ثالث ثلاثة أو هو ابن الله ، والافتراء فى قولهم إن اليهود والنصارى هم أبناء الله وأحباؤه ، وذلك من مقولات أهل الكتاب كما تبين بالجزء الأول .. وقد

---

(١) ابن كثير ٢/ ٢٥٥ .

أخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة كرجم الزاني وتحريم الربا كافة .. وجميعهم أخفوا خبر بعثة النبي الأمي الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل .

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم بالبينات ، وليفرق بين الحق والباطل وليبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة فى بيانه .

جاءهم الكتاب ليهديهم إلى طريق النجاة والسلامة ومناهج الإستقامة، وينجيهم من المهالك ، ويصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم أنسب الأمور ويخرجهم من الظلمات إلى النور « ظلمات الكفر والجهالات إلى نور الإسلام والهدايات بتوفيقه وإرادته سبحانه وتعالى » ويهديهم سبل السلام وهى طرق السلامة الموصلة إلى الجنة ، ودار السلام منزهة عن كل آفة ، ومؤمنه من كل مخافة ، وليس بعد الهدى والنور إلا العمى والضلال.

وقد بشر رسل الله جميعا بوجود محمد ﷺ ونعته وصفته وبلده ومهجره وصفة أمته ، وقد بينا فى الجزء الأول من الآيات والدلائل عن ذكر رسول الله ﷺ فى التوراة والإنجيل ومنه حديث الإمام أحمد عن عطاء ابن يسار عن عبد الله بن عمرو فى صفات رسول الله ﷺ فى التوراة وقول عيسى عليه السلام فى سورة الصف .

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

يقول الإمام القرطبي : ولفظ الذين أوتوا الكتاب يعم اليهود والنصارى، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب فى نبوة محمد ﷺ إلا من بعد ما جاءهم العلم فى كتبهم ببيان صفته ونبوته .

قال تعالى لرسوله ﷺ :

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران] .

فإن جادلوك بالأقاويل المزورة والمغالطات فأسند أمرك إلى ما كلفت من الإيمان والتبليغ ، وعلى الله نصرك .

ولقد أعطى الله جل جلاله أوصاف رسول الله ﷺ لأهل الكتاب حتى أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة] .

وكان يهود المدينة يقولون للكفار أطلَّ زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم - فلما جاء رسول الله ﷺ كانوا أول من حاربه وأنكر نبوته .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة] .

وفى الصحيحين وغيرهما ثبت أنه ﷺ بعث كتبه إلى ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم الكتابي والأمي يدعوهم إلى الله .. فبعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر السنة السادسة من الهجرة كتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمم«إلى هرقل عظيم الروم وملكهم، وهو الذى حن قلبه للإسلام ولكن غلبه حب الملك على الإسلام » ، « وإلى النجاشى ملك الحبشة الذى أسلم على يد عمرو بن أميه الضمري» ، « وإلى كسرى ملك الفرس مع عبد الله بن حذافه السهمي - فمزق كتاب رسول الله ، فلما بلغ رسول الله ﷺ قال : مزق الله ملكه .. وأجيبت دعوة النبي ﷺ فقتله ابنه شيرويه »[1] .

وإلى المقوقس عظيم القبط وأمير مصر من جهة قيصر مع حاطب بن أبى بلتعه ومعه قول الله تعالى :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران] .

فأكرم المقوقس رسول الله ، وبعث إلى رسول الله ﷺ بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وأهدى إليه بغلة ليركبها «ولم يسلم» - إحدى الجاريتين « مارية » التى تسرى بها عليه الصلاة والسلام وجاء منها بولده إبراهيم ، والأخرى سيرين أعطاها لحسان بن ثابت ﷺ[2] . وتقول السيرة أن البغلة بقيت إلى زمن معاوية ﷺ .

٣ - مواجهة المشركين بشهادة الله :

وواجه رسول الله ﷺ المشركين بشهادة الله الذى يقضي بالحق وهو خير الفاصلين

---

(١) نقلا من هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ ص٥٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (وفقرات الكتب المرسلة إلى ملوك الأرض لخصت من كتاب هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ رحمه الله (ص ٥٤) .

المتصرف وحده مالك الملك يعطى الملك من يشاء ويسلب الملك ممن يشاء ويعز من يشاء بإعطائه الملك والسلطان ويذل من يشاء بسلب الملك منه وتسليط عدوه عليه ، فكل شيء بيده سبحانه وإليه لا إلى غيره ، ولا يقدر على ذلك أحد غيره .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] .

وليس بعد هذه الشهادة شهادة على صدق البلاغ ، ومن أعظم شهادة وأكبر من العالم بالمحق من خلقه والمبطل ؟ والرشيد والسفيه ؟ والمطيع والعاصي؟ .. شاهد بصدقه سبحانه وتعالى ..وهو الذى أوحى إلى رسوله ﷺ هذا القرآن ليبين للذين لم يؤمنوا عذاب الله ونكاله وعقابه ، وينذر به من بلغه القرآن من سائر الخلق .

وأما المشركين الذين يعترفون مع الله بمعبودات غيره من الأصنام والأوثان فلا إقرار ولا إعتراف بهم وبما يعبدون..وإنه لمعبود واحد لا شريك له ولا ندعوا غيره إلهاً ومعبودا.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] .

﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام] .

وجاء فى الخبر«من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذ به أو ترك».

وقال مقاتل « من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له» .

وقال القرطبي« من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ وسمع منه »(١) .

٤ ـ الفرار إلى الله وقاية وحماية .

وقد علم الله تعالى ما يصد رسوله ﷺ من عناد المعاندين ، وأن طبيعة النفس البشرية تضيق بالجهل والتعنت وأن رسوله عليه الصلاة والسلام يضيق صدره من الساخرين المستهزئين من أشراف قريش وصناديدها وهم كما جاء فى التفسيرات«الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد مغوث ، والأسود بن عبد المطلب ، والحارث بن

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٤٨٤ .

(٢) (ابن كثير ٢/ ٥٥٩) وروى عن سعيد بن جبير وعكرمه على سياق محمد بن اسحاق .

الطلاطلة » وقد أهلكهم الله جميعاً ، وغيرهم ممن كذبوا النبي عليه الصلاة والسلام واستهزءوا به وعلى رأسهم « بن عبد العزى بن قصي الذى دعا عليه رسول الله ﷺ فقال : اللهم اعم بصره واثكله ولده لكثرة أذيته لرسول الله ﷺ ... وقد أهلكهم الله جميعاً »[٢] .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر] .

فكان بذلك باباً مفتوحاً لكل المؤمنين حينما ينتابهم أى أمر يكرهونه أن يتوجهوا إلى الله ويفزعوا إليه سبحانه وتعالى بالشكر والطاعة والله كاف عبده ما أهمه وما أحزنه.

وفى الحديث أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ففى صلاة العبد الراحة والثقة والأمان والاطمئنان وكيد نحور المشركين والمستهزئين حتى يأتي الموت اليقين ، فإذا ما أصاب الإنسان ضر أو مكروه فليسرع بالتسبيح لله والتحميد والسجود ... وإخلاص العبادة لله يذهب الله بها كل هم وكرب بإذنه تعالى .

قال عليه الصلاة والسلام « أرحنا يا بلال »[١] أى أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كانت قرة عينه فيها ﷺ .

لقد أراد الله سبحانه وتعالى تسلية النبي ﷺ عن قول المشركين حتى يبلغ الرسالة ولا يبالى بهم . فقال سبحانه:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود:١٢] .

وفى قوله تعالى ضائق به صدرك ولم يقل ضيق ليدل على إتساع صدر النبي ﷺ وقلة ضيقه ، وما على رسول الله ﷺ إلا تبليغ الرسالة ، فإن الله مطلع على عباده وبصير بأعمالهم وأفعالهم وسيجازيهم على أعمالهم .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود].

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] .

فبعد هذا التحدي والإعجاز القرآني الذى لا يقدر على تنزيله إلا الله سبحانه :

---

(١) في العلل من حديث بلال ولأبي ذر نحوه (إحياء علوم الدين ١/ ١٦٥) بإسناد صحيح - ورواية أخرى لأحمد وأبي داود عن حذيفة ﷺ) .

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود].

٥ ـ عمر الدعوة إلى الله :

ثلاثة وعشرون عاماً تقريباً عمر الدعوة إلى الله .. قضى منها النبي ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً في بناء القلوب على الطهارة والصفاء والنقاء على أساس متين من الإيمان وعلى هدى من الله ونور يواجه الباطل بالحق.. ويدعو إلى وحدانية الله على بصيرة .. ويهدى الناس إلى الحق ويعلى قدر الإنسانية .

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاثة عشرة سنه توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبيانات ودلالات .

فلما قامت الحجة على المخالفين والمنكرين أعداء الدعوة إلى الدين وعظمة الدين ، شرع الله الهجرة وأمر سبحانه وتعالى بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب لمن خالف أمر الله وكذب به وعانده . ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة] .

ولكن شرع الله سبحانه وتعالى الجهاد وقتال الأعداء وفى موضع أخر قال سبحانه وتعالى :

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة] .

والذين كذبوا رسول الله ﷺ من أهل مكه شدد القرآن الكريم لهم التهديد الشديد والوعيد الأكيد ، ولقد رفع سبحانه العقوبة عن كثير منهم فى الدنيا لبركة وجود رسول الله ﷺ نبي الرحمة فيهم .

روى الإمام أحمد وأبو داود من حديث عبدالرحمن بن ثابت عن ثوبان عن ـ عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري .. ومن تشبه بقوم فهو منهم» [1].

---

(١) ابن كثير ٤/ ٣١٥ .

وفى سبيل تمكين هذه العقيدة ونشر دعوة الإسلام تحمل رسول الله ﷺ الكثير من الأذى والعداء والعناد والاضطهاد ، ولاقى عليه الصلاة والسلام والمسلمون الأوائل كل الأهوال من ألوان العذاب . ولكنه ﷺ تحمل فى سبيل ذلك ما لم يقدر عليه تحمل أحد، وتجمل بالصبر وتحلى بالجهاد والكلمة الطيبة .

٦ ـ صناديد الكفر والاضطهاد .

لقد فكر الوليد بن المغيرة فى شأن النبي ﷺ والقرآن وهيأ الكلام فى نفسه ، ذلك لما نزل على رسول الله ﷺ قول الله تعالى :

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر] .

فقال الوليد لأصحابه : والله لقد سمعت منه كلاماً «أى من رسول الله ﷺ » ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ـ ليس بشعر، ولا بسحر، ولا كهانه وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر كان.

وكان الوليد بن المغيرة يغتر بماله الكثير والممدود ، وبالأولاد من حوله يتمتع بهم ، وقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، ومكنه من صنوف المال والأرض والأثاث ورزقه الله الرزق الواسع ، وكانوا يسمونه ريحانة قريش، ولكنه كفر بأنعم الله وجحد بها ، وبدلها كفراً ، وقابلها بالجحود والإفتراء عليها وجعلها من قول البشر ،، وكان له دور رئيسي خاص فى تكذيب دعوة النبي ﷺ ، وكان ممن يحسدون رسول الله ﷺ على إعطائه النبوة ، ولعله كان يطمع أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتاباً .

قال الله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾ [المدّثر] .

وتولى الله أمره فقال :

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥﴾ [المدّثر] .

فبعد هذا الوصف الدقيق الجميل للوليد بحلاوة القرآن الذى سمعه على لسان رسول الله ﷺ وطلاوته ـ قال أبو جهل بن هشام لقومه دعوني أنا والله أكفيكم شأنه ! فانطلق حتى دخل عليه بيته ، وعبر له عن حزنه لما يجمعه القوم من مال للوليد ، وقد كانت قريش قد قالت «صبأ الوليد» أى ترك دينه ودخل فى الإسلام ، والله لتصبأن قريش كلها، فأثار بن هشام كبرياء الوليد ، وكان يعتز بكبريائه ، فقال : لقد علمت قريش أنى أكثرهم مالاً

.. ولأن المسألة أصلاً ليس فيها عقيدة فى قلوب هؤلاء المشركين فالرباط مفقود بين قلب الوليد ولسانه لا يتفقان ، فهذا الذى قال فى القرآن إن أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ولا هو بشعر ولا بسحر وإن له حلاوة وعليه طلاوة ، سرعان ما انقلب على نفسه ، وعاد الوليد لعناده وكفره .

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدّثر] .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدّثر] .

وكان جواب الله أن يدخله سقر الطابق السادس من جهنم كي يصلى حرها ، فهي لا تترك لحما ولا عرقا ولا عصبا ولا دما ولا جلدا إلا أحرقته لا تبقى منهم شيئا ، ثم يبدلهم الله غيرها ويعيدهم إلى جهنم مرة أخرى .

قال سبحانه وتعالى فى سورة النساء : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء] .

فلا تبقى سقر من فيها ولا تذر ، قال سبحانه :

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدّثر] .

نار لا تبقى من فيها حيا ، ولا تذر من فيها ميتا ، ولكنها تحرقهم كلما جدد خلقهم ، وعلى جهنم تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها .

نقل ابن جرير عن مجاهد وابن عباس وقتادة والضحاك فى صفوة التفاسير : ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ [المدّثر] .

أى تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهولها كقوله تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات] .

ولما نزلت هذه الآية قال أبو جهل« ثكلتكم أمهاتكم » اسمع بن أبى كبشه «يعنى محمدا» يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم ـ «أى العدد الكثير الشجعان » أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟

فقال أبو الأشد الجمحي وكان شديد البطش : وأنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين ـ فنزلت الآية رداً عليهم [1] .

---

(١) م الطبرى (٢/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠) .

روى الإمام أحمد عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبدالله ، قال : ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس .. « وسلا جزور قريب منه » فقالوا : من يأخذ هذه السلا فيلقيه على ظهره ؟ فقال عقبه بن أبي معيط : أنا ، فأخذه فألقاه على ظهره فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره،فقال رسول الله ﷺ:اللهم عليك بهذا الملأ من قريش، اللهم عليك بعتبه بن ربيعه، اللهم عليك بشيبه بن ربيعه، اللهم عليك بأبى جهل بن هشام اللهم عليك بعقبه بن أبى معيط ، اللهم عليك بآبى بن خلف ـ أو أمية بن خلف.

قال عبدالله فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعا ، ثم سحبوا إلى القليب غير آبى أو أمية بن خلف فإنه كان رجلاً ضخماً فتقطع .

وفى بعض ألفاظ الصحيح أنهم لما فعلوا ذلك استضحكوا حتى جعل بعضهم يميل على بعض أى يميل هذا على هذا من شدة الضحك لعنهم الله ، وفيه أن فاطمة لما ألقته عنه أقبلت عليهم فسبتهم وأنه ﷺ لما فرغ من صلاته رفع يديه يدعو عليهم فلما رأوا ذلك سكن عنهم الضحك وخافوا دعوته، وأنه دعا على الملأ منهم جمله وعين فى دعائه سبعه وقع فى أكثر الروايات تسمية سته منهم وهم عتبه وأخوه شيبه ابنا ربيعه والوليد بن عتبه وأبوجهل بن هشام وعقبه بن أبى معيط وأميه بن خلف ، قال ابن اسحق : ونسيت السابع . قلت وهو عماره بن الوليد وقع تسميته فى صحيح البخاري [1] .

ويروى عبد الملك بن أبي سفيان الثقفي عن رجل من إراش قدم بإبل له إلى مكة فابتاعها منه أبو جهل بن هشام فمطله بأثمانها ، فأقبل الإراشي حتى وقف على نادى قريش ، ورسول الله ﷺ جالس فى ناحية المسجد ، فقال يامعشر قريش من رجل يؤديني [2] علي أبى الحكم بن هشام ، فإنى غريب وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ؟ فقال أهل المجلس : ترى ذلك إلى رسول الله ﷺ « يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة »اذهب إليه فهو يعديك عليه أى يؤديك عليه » .

---

(١) البداية ٢/ ٥٤ .

(٢) (يؤديني) يساعدني علي استرداد حقي ـ السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧. تحقيق طه عبدالرءوف سعد ، ويوجد في البداية ٢/ ٥٥ بلفظ (يعديني) .

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فقام معه ـ فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ما يصنع ؟ فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال محمد فاخرج ، فخرج إليه وما فى وجهه قطرة دم ، وقد انتقع لونه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه ، قال لا تبرح حتى أعطيه الذى له . قال : فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للإراشى : الحق لشأنك .

فأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً فقد أخذت الذي لي ، وجاء الرجل الذى بعثوا معه فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟ قال : عجباً من العجب ، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه فقال : أعط هذا الرجل حقه فقال : نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه . فدخل فأخرج إليه حقه فأعطاه .

ثم لم يلبث أن جاء أبوجهل فقالوا له : ويلك مالك ، فوالله ما رأينا مثل ما صنعت، فقال : ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعبا، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته، ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فوالله لو أبيت لأكلني[1] .

وفى البخاري عن عروة بن الزبير ، سألت عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ ،قال : بينما النبي ﷺ يصلى فى حجر الكعبة ، إذ أقبل عليه عقبه بن أبى معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبوبكر ﷺ حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر].

وروى البيهقي عن الحكم عن محمد بن اسحق ، حدثني يحيى بن عروة عن أبيه قال : قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته؟ فقال : لقد رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً فى الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير م ٢ / ٥٥ .

وشتم آبائنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعاتنا، وسب آلهتنا، وصرنا منه على أمر عظيم أو كما قالوا . قال : فبينما هم فى ذلك طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشى حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً البيت فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ فمضى .. فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفتها فى وجهه فمضى..فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال: أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح [1] .

فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع .. إلخ .

٧ ـ تمكين العقيدة فوق أشواك الأذى والتعذيب :

هكذا أوذى رسول الله ﷺ وما يؤذى أحد ، وخاف فى الله وما يخاف أحد ، والقوم يلجأون إلى عمه أبوطالب فيقول ﷺ : ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر فى يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته [2] .

قال عمه أبو طالب : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمنك بشيء أبدا ، وعلمت قريش أن أبا طالب قد أبي خذلان رسول الله ﷺ فقدموا إليه بعماره بن الوليد بن المغيرة يعرضون عليه أن يأخذه ويتخذه ولدا ويسلم إليهم رسول الله ﷺ ـ فقال : هذا والله ما لا يكون أبدا [3] .

ففى سبيل تمكين العقيدة ونشر دعوة الإسلام وتنفيذ أمر الله فى البلاغ عن دين الله الذى جاء لينقذ البشرية من الضياع الذى تعيش فيه ، ويهدى الناس إلى سبل السلام ، تحمل عليه الصلاة والسلام الكثير من الأذى .. فكان عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى الحق ولا يسمعون له بل ويسخرون ويستهزءون وقد استنكروا الآيات البينات التى لا شبهه ولا غموض فيها بل هى الحق الذى لا مرية فيه .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الأحقاف] .

وعلى القلة التى أمنت بالله ورسوله يستنكرون ويؤذون ويتربصون بالباطل ليطووا به صفحة الحق المبين فأذاقوا المسلمين الذين اتبعوا الحق من العذاب ما يذل النفوس .

قال ابن اسحق : ثم إنهم عَدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوه منهم ليفتنونهم عن دينهم .

---

(١) (فى الحلية بالذبح وفى بن هشام بالذبيح) السيرة النبوية ١/ ٢٥٩ .

(٢) البداية ٢ / ٥٨ .

(٣) والأحداث بالسيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٤٠ .

أميه بن خلف يعذب بلال بن رباح ويطرحه على ظهره فى بطحاء مكة اذا حميت الظهيرة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى فيقول وهو فى هذا البلاء : أحد أحد.

وعمار بن ياسر أخرجه بنو مخزوم وأباه وأمه ، وكانوا أهل بيت إسلام فإذا حميت الظهيرة عذبوهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول « صبراً آل ياسر موعدكم الجنة» [1] فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام ، وقد أكره عمار بن ياسر على التلفظ بكلمة الكفر فنطق بها وأنزل الله سبحانه وتعالى فى ذلك قوله تعالى :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾[النحل].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أخذه المشركون ، وأخذوا أباه وأمه سميه وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما ـ فعذبوهم ، وربطت سميه بين بعيرين ، وجئ قبلها بحربه ، وقيل لها إنك أسلمت من أجل الرجال ، فقتلت وقتل زوجها ، وهما أول قتيلين فى الإسلام .

وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ـ فشكا ذلك للنبي ﷺ فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال مطمئناً بالإيمان فقال رسول الله ﷺ « إن عادوا فعد» [2] .

وهذا أبو جهل يتوعد رسول الله ﷺ ويعاهد على أن يجلس له فى الغد فإذا سجد فى صلاته يضرب على رأسه بحجر ما يطيق حمله، فلما كان الصباح أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو وكان عليه الصلاة والسلام بمكة وقبلته إلى الشام فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام عليه الصلاة والسلام يصلي وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده ـ وقامت إليه رجال قريش فقالوا له مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي أن يأكلني [3] .

---

(١) السيرة النبوية ١/ ٢٧٩ .

(٢) فقه السنة ٢/ ٤٥٠ .

(٣) السيرة النبوية ١/ ٢٦٤ .

قال ابن اسحاق فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل لو دنا لأخذه .

ألقوا التراب على رسول الله ﷺ وطرحوا فوقه القاذورات فتبكي فاطمة حينما ترى هذا الإيذاء بأبيها فيقول لها النبي ﷺ : يابنيه لا تظنى أن حفنة من التراب تطفئ نور القمر ولا أن ساعة حزن من الزمان يحكم به على الزمان كله ـ يابنيه لا تبكى فإن الله مانع أباك[١] .

ولم تكتف الفئة الظالمة الكافرة عن الإيذاء والاضطهاد بما لا يطيقه احتمال الإنسان مهما كان جلده وصبره وقوته ، ولم تكتف بذلك بل منعت منهم الرحمة ـ لا تأخذهم شفقة ولا رحمة .

٨ ـ حصار المؤمنين وعناد المشركين .

حاصروا المسلمين فى شعب من شعاب جبال مكة العالية والصعبة القاسية ثلاث سنوات لا يجدون خلالها ما يأكلون فقد منعوا عنهم الزاد ، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لحفظ دينه لهلكوا ، ولكنهم صبروا وتحملوا الحصار والأذى فى النفس والأهل والمال ، لم يستسلموا للأمر الواقع أو الرضا بالظلم والأذى ، ولم يرتد منهم أحد عن دينه ، وكشف الله عنهم غمة الحصار ورفع عنهم الأذى بقدرته سبحانه وتعالى .

يقول إبن هشام فى السيرة النبوية : قال ابن اسحق : وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبي طالب متخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ـ فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا ـ فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ـ ثم أن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله ﷺ: يابن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال: أى ياعمّ ! هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ـ أو كما قال ﷺ بعثنى الله به رسولاً إلى العباد وأنت أى عمّ،أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعانني عليه أو كما قال : فقال أبوطالب أي ابن أخى : إني لا أستطيع أن أفارق دين أبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك « أى لا يوصل إليك » بشئ تكرهه ما بقيت[٢] .

---

(١) البخاري / الجزء الأول ٤١٦ باب الوضوء ـ نقل عن وقفات تربوية عن السيرة النبوية/ ٧٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢٩ .

ولم ييأس رسول الله ﷺ ولا أتباعه ظلوا يجاهدون، ينادي عليه الصلاة والسلام فى القبائل:أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا،ودعوا هذه الأوثان والأنداد، من يؤويني؟ من ينصرني ؟ من يمنعنى حتى أبلغ رسالة ربي ؟ هذا ومن ورائه عمه أبولهب يقول : «أيها الناس ـ لا تصدقوه فإنما ينهاكم عن عبادة اللات والعزى وما وجدتم عليه آباءكم».

أخرج البخاري بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد لجبل فنادى « ياصباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقال : أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أومسيكم ؟ أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبولهب ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك فأنزل الله :

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المَسَد].

وفى رواية فقام ينفض يديه وهو يقول : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ وأبولهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ وإسمه عبدالعزى بن عبدالمطلب وكنيته أبو عتبه وإنما سمى أباللهب لإشراق وجهه ، وأمرأته أم جميل وهى أروى بنت حرب بن أميه وهى أخت أبى سفيان وكانت فى عون زوجها فى هذه الحملة الدائبة الظالمة ، وقد اتخذ أبولهب موقفه العدائى من النبي ﷺ منذ اليوم الأول للدعوة وكان كثير الأذية له عليه الصلاة والسلام وكثير البغض والإزدراء والتنقص له ولدينه ـ كلما بلغ النبى القوم ودعاهم إلى وحدانية الله كان وراءه يقول إنه صابئ كاذب يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أفيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه .

وذكر ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبولهب : إن كان ما يقول ابن أخيّ حقاً فإنى أفتدى نفسى يوم القيامة من العذاب بمالى وولدى فأنزل الله تعالى :

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المَسَد].

« أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد » أما زوجته التي كانت عوناً له على كفره وجحوده وعناده تكون يوم القيامة عوناً عليه فى عذابه فى نار جهنم « حمالة الشر والسعى والأذى والوقيعة » تحمل الحطب وتلقيه فى طريق النبي ﷺ لإيذائه فعذابها فى النار أن تغل بحبل من مسد ، والجزاء من جنس العمل .

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المَسَد].

قال ابن اسحق : فذكر لى أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وزوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها فهر من حجارة « أى بمقدار ملء الكف » فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺفلا ترى إلا أبا بكر .

فقالت يا أبا بكر : أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الفهرفاه ، أما والله وإني لشاعره ! ثم قالت : مذمما عصينا وأمره أبينا .. ثم انصرفت فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال ما رأتنى لقد أخذ الله ببصرها عنى .

وفى رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فقال له أبو بكر : لو تنحيت لا تؤذيك بشيء ؟ فقال رسول الله ﷺ «إنه سيحال بينى وبينها» فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر، وفى الحديث قالت لأبى بكر: إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر : ما رأتك ؟ قال : لا ، مازال ملك يسترني حتى ولت [1] .

هكذا بلغ الغيظ والأذى والوقيعة والفتنة لرسول الله ﷺ من أقرب الناس إليه عمه عبدالعزى بن عبدالمطلب والمسمى أبولهب ليتلى فيه قرآناً إلى يوم القيامة يبين الله فيه للخلائق مصيره إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .. لقد استكبرت قريش عن الإيمان وعتوا على الله وتركوا أمره عيانا واتخذوا القرآن هزواً وقال قائلهم :

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] .

اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ يوماً فقالوا : والله ما سَمِعَت قريش هذا القرآن يجهر به قط فمن رجل يسمعهموه ؟ وقام ابن مسعود ﷺ عند المقام ليكون أول من جهر بالقرآن فى مكة وهو يتلوه بصوته الرائع .

﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن] .

فجعلوا يضربون فى وجهه ـ وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ وهو يقول ما كان أعداء الله أهون على منهم الأن ، وتلك بعد ما أسمعهم ما يكرهون [2] .

وفى السيرة أيضاً أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق كانوا يخرجون بالليل لا يعلم أحدهم بالأخر ليستمعوا للقرآن حتى إذا طلع الفجر تفرقوا

---

(١) ابن كثير ٤/ ٥٦٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٧٥ .

فجمعهم الطريق فتلاوموا ثم انصرفوا ـ حتى إذا كانت الليلة الثانية والثالثة ، كل من وراء الأخر يتفرقوا عند الفجر فيجمعهم الطريق .. ولكنهم تعنتوا وعلى قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقر ـ قال تعالى :

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء] .

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أن أبا ذر لما دخل على رسول الله ﷺ ، قال له النبي ﷺ : إرجع إلى قومك حتى يأتيك أمرى . فقال : والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وثار القوم وضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه فقال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام ؟ « يعنى عليهم » فأنقذه منهم،ثم عاد من الغد لمثلها وثاروا إليه فضربوه فأكب عليه العباس فأنقذه [1].

لقد كذب سفهاء قريش رسول الله ﷺ وأذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون .

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر] .

وأقسم الله تعالى بالذى يخطون ويكتبون ما أنت يامحمد بنعمة ربك بمجنون كما زعم المشركون وإن لك ثواباً من الله عظيما على صبرك وتحمل أذاهم ، لقد جئتهم بالهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون .

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم] .

أي غير مقطوع ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود].

ـ الأجر العظيم والثواب الجزيل الذى لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم ـ كقوله تعالى فى الذين أمنوا وعملوا الصالحات .

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين] .

---

(١) أخرجه البخاري فى كتاب مناقب الأنصار باب إسلام أبي ذر الغفاري . الحديث ٣٨٦١ وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (الحديث ١٣٢).

وأثنى الله على رسوله ﷺ بالأدب العظيم الذى أدبه به سبحانه وتعالى ، وهو أدب القرآن الكريم وأدب هذا الدين العظيم«وسترى يا محمد ويرى المشركون بأيكم المجنون» وربكم يعلم الذى أفتتن عن الحق وضل عن طريق الهدى والصراط المستقيم .

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾ [القلم] .

بل الذين جحدوا وحدانية الله يكذبون بآياته وتنزيله والله أعلم بما تكتمه صدور هؤلاء المشركين من العناد والتكذيب والإستهزاء برسوله الكريم .. وأمر الله رسوله ﷺ أن ينذرهم بالعذاب الأليم إلا من تاب وأمن ، قال سبحانه .

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾ [الانشقاق] .

وليس هؤلاء بأقوى من الجبارين السابقين وأمثالهم على مر الأجيال والقرون ـ كانوا أكثر عددا وأشد قوة وآثارا فى الأرض فلم ترد عنهم قوتهم وجبروتهم ذرة من بأس الله .

﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٢﴾ [غافر] .

ويدعو النبي ﷺ ربه « اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك ـ عمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام « أبى جهل » ـ فكان أحبهما إلى الله تعالى عمر بن الخطاب[1] ـ وكان عمر جسيما قوى الجسم ، يثب على فرسه فكأنما خلق على ظهره .

يقول بن مسعود ﷺ :

كان إسلام عمر فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمامته رحمة .. وكان المسلمون فى ضعف قبل إسلام عمر ، فلما أسلم قويت شوكتهم وأعزهم الله بإسلام عمر ... وقال بعض الصحابة: مازلنا أعزة منذ أن أسلم عمر ، وفى عهده تم فتح العراق والشام ومصر وذللت دولة الفرس «إيران حالياً» .

كان عمر من قبيلة عدى بن كعب وهى قبيلة عدنانية من قريش ولم يكن لها مناصب فى مكة ، ولكنها كانت تنافس بنى عبد شمس الشرف، وكان الخطاب شريفاً فى قومه ، ولم

---

(١) أخرجه احمد والترمذي عن ابن عمر .

يكن ذا مال ولا خدم ، وكان فظاً غليظاً، وأمه حشمه بنت هاشم بن المغيرة .. اشتغل بالرعي فى طفولته ولما كبر اشتغل بالتجارة .

وعندما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة فراراً إلى الله ثارت نفس عمر وأراد التخلص من محمد ودعوته ونسى أن لله فى الخلق حكمه ، وأن حكمته قضت أن يكون عمر هو الفاروق الذى يتحدث الناس بإسمه .. ولقد علم أن أخته فاطمة وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلما ، فأسرع إليهما ليبطش بهما ، وحاول أن يفتك بسعيد بن زيد ، فلما تدخلت زوجته فاطمة لحمايته ضربها حتى سال منها الدم ، وعندما رأى عمر الدم يسيل من وجه أخته فاطمة رق قلبه وحدث فيه انفعال بالرحمة فخرج العناد من قلبه ، فطلب صحيفة القرآن التى كانا يقرآن فيها .. وقرأ من أول سورة طه .

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه] .

ثم قال ... ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، وأسرع إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه ـ ليحقق الله لرسوله ﷺ إجابة دعوته بأن يعز الإسلام بأحد العمرين. وكان عمر بن الخطاب .

ومن ثم فهو أول من دون الدواوين، ونظم ديوان الجند ، ومصر الأمصار ، وأول من استعمل التاريخ الهجرى بداية من هجرة رسول الله ﷺ ، وحضر الغزوات كلها مع النبى عليه الصلاة والسلام، ثم لما قُبض أعان أبا بكر على توليه الخلافة خشية تفرق المسلمين ، ثم كان بعد ذلك هو الخليفة ، ثم دفن مع رسول الله ﷺ ـ أمر الله وحكمته التى يقضى بها بين الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

روى ابن حجر ما أخرجه أحمد عن شريح بن عبيد قال : قال عمر ﷺ :

خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ ، فوجدته سبقنى إلى المسجد ـ تقدمت خلفه ـ فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أتعجب من تأليف القرآن فقلت هذا والله شاعر فقرأ .

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [الحاقة] فقلت كاهن فقرأ .

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الحاقة] .

حتى ختم السورة فقال : فوقع الإسلام فى قلبي كل موقع .

ولما علمت قريش بإسلامه لم تصبهم كآبة مثلها ـ قال عمر : سماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ ـ وأصبحت سيرة عمر تدرس فى جامعات العالم الإسلامية وغير الإسلامية .

.. وتوغل الإسلام فى القلوب .

روى الإمام أحمد عن أنس ﷺ أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه .. فمرض .. فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد على رأسه ، فقال له النبي ﷺ: يافلان قل لا إله إلا الله .. فنظر إلى أبيه .. فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه ـ فقال أبوه: أطع أبا القاسم ، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : الحمد لله الذى أخرجه بى من النار[1] .

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .

ذلك كله والإيمان يتغلغل فى قلوب المؤمنين المصدقين لرسول الله ﷺ والذين اتبعوه ولم تحرك فيهم هذه الألوان المتعددة من الأذى والإهانات والتعذيب ساكنا ، ولم تزدهم إلا إيمانا وعلى ربهم يتوكلون .ويمضى أبو بكر الصديق ﷺ وأرضاه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل].

يمضي فى شراء العبيد بماله ، ويعتقهم فى سبيل الله ليخلصهم من عذاب المشركين ، ومنهم بلال ﷺ ، الذى قال فيه عمر: سيدنا أعتق سيدنا ، السيد الأول هو أبو بكر والسيد الثاني بلال الحبشي الأسود وكان مملوكاً لبنى جمح ـ فلما دخل الإسلام صار من أسياده .

هؤلاء هم سلفنا الذين دافعوا عن الإسلام فأى فتنة أصابت المسلمين اليوم فجعلتهم يتباطئون عن دينهم وطاعة ربهم ويسلمون أمرهم وولائهم لمن يقتلونهم كل صباح ، ويضرب بعضهم رقاب بعض ؟ .. بينما المدن تقصف ! والأرواح تزهق ! والولاء صار لعدو الله !!! وكأن الجاهلية الطالحة عادت بالوليد بن المغيرة وعتبة وشيبه وأبوجهل فى صورة أخرى من خارج أمة الإسلام ليتحكموا فيها ويستنفذون خيرها وثرواتها ويستهزءون بدينها ورسولها .... يطمعون فى كل شيء ، ويأخذون كل شيء ، ويستهلكون ثروات أمتنا لحسابهم ، وهم يمزقون أصول ديننا وعقيدتنا ويهينون اسم نبينا على صفحات مجلاتهم بالكاريكاتير ويدنسون المصحف الشريف بالأقدام«لعنهم الله» ، وعيانا كما تحدثت عنه الفضائيات على شاشات التلفاز ، ثم تعود الرسوم الساخرة فى حق النبي ﷺ لتنشرها صحف الدنمارك بحجة حرية التعبير .. وسرعان ما تشاركها السويد والنرويج وألمانيا هذا الحق فى حرية التعبير فى الصحافة، وتمتد الإساءة من كوبنهاجن إلى باريس لتنشرها فرنسا فى إحدى صحفها على اعتبار أن ذلك لا يمس أى شبه عنصرية أو

---

(١) رواه البخارى فى الصحيح (١/ ٣٥٥) .

يحقر شأن الأخرين ، وتثور الجاليات المسلمة ومنها أكثر من مائتى ألف فى الدنمارك إضافة إلى علماء المسلمين فى كل أنحاء العالم يطالبون بمقاطعة المنتجات الدنماركية ، ويسألون الصحيفة الإعتذار للمسلمين ـ والأمة التى تغار على دينها لم يعد يكفيها إستنكارهم على كل هذه الأحداث التى تهين دينهم ورسوله ـ فإلى متى يستمر هذا الإستهزاء ويفقد هؤلاء الذين يستكبرون على دين الله إحترامهم للأديان والمقدسات ؟ وإحترامهم لمشاعر المسلمين ؟ بينما جميعهم صامتون أمام عنف الصهيونية وعدوانها على أمة الإسلام «ألا من صحوة لهذه الأمة لتحمى دينها وتدافع عن رسولها وتلزم الدنيا بأكملها باحترام كتاب الله فيها ؟» .

٩ ـ بطش الجبارين ورب المستضعفين ﷻ :

وليس فيهم من هو عزيز على سقر التى لا تبقى ولا تذر أحداً من الكافرين والمعاندين لدين الله ، ولعل الله سبحانه وتعالى أن يدفع عن دينه شر الكافرين .. والله أشد قوة وبأساً وانتقاماً وأعظم سلطاناً وأقدر بأساً على ما يريده وأشد عقوبة وتنكيلا .

قال سبحانه وتعالى : ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء] .

ومن ثم فإن المستهزئين بدين الله السابقين تمادوا فى الشر واكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء ....

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:مر رسول الله ﷺ على أناس بمكة فجعلوا يغمزون فى قفاه ويقولون : هذا الذى يزعم أنه نبي ومعه جبريل ، فغمز جبريل إصبعه فوقع مثل الظفر فى أجسادهم فصارت قروحاً حتى نتنوا،فلم يستطيع أحد أن يدنو منهم [1] .

وعند الطبراني أن هؤلاء المستهزئين :

الوليد بن المغيرة « فأشار جبريل إلى عرق فى باطن ذراعه فقطعها » .

...والأسود بن عبد يغوث « خرجت فى رأسه قروح فمات منها والأسود بن أبي زمعه من بني أسد » وقد عمى » .

والحارث بن عيطل السهمي « أخذه الماء الأصفر فى بطنه حتى مات» .

---

(١) حياة الصحابة ٣/ ٥٣٦ .

(٢) حياة الصحابة ٣/ ٥٣٦ .

والعاصي بن وائل السهمي « دخلت فى رجله شوكه امتلأت منها فمات »[٢].

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه ولا يلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوا رسول الله ﷺ عن آيات الله : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم].

وأبلغه الله سبحانه وتعالى أنَّهُ كافيه إياهم وحافظه ﷺ منهم :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٧﴾ [المائدة].

ثم أنزل الله تعالى عليه :

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾ [الحجر].

ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد ، واشتد عليهم البلاء،وجمعت قريش فى مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بنى عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم وأن يمنعوه ممن أرادوا قتله .

وأجمع المشركون أمرهم ، وكتبوا فى مكرهم صحيفة وعهودا ومواثيق .. لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبدا ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا لهم رسول الله ﷺ ... وتتوالى الأحداث وتمر الأيام بثقلها ومتاعبها وأبوابها الواسعة والطويلة فى الجهاد لإعلاء كلمة الحق ودفع الباطل الذى كلما اقتربوا من نهايته صارت له أنياب جديدة عاقت وأعاقت الدعوة إلى الله فى مكة.... فقد أعلنت قريش الحرب على رسول الله ولم يعد ، أو لم يكن يوما فى قلوب مشركيها شفقة ولا رحمة .

ورسول الله ﷺ يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً منادياً بأمر الله تعالى لا يتقى فيه أحدا من الناس ، وقام عمه وقومه من بنى هاشم وبنى عبد المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به « يهزمونه ويستهزءون به ويخاصمونه » وجعل القرآن ينزل فى قريش بأحداثهم وفيمن نصب لعداوته منهم من سمى لنا ومنهم من نزل القرآن فى عامة من ذكر الله من الكفار.. فذكر ابن إسحاق منهم أبا لهب ونزول السورة فيه ،، وذكر

أمية بن خلف ونزول قوله تعالى :

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة].

« السورة بكاملها فيه » والعاص بن وائل ونزول قوله تعالى :

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم] .

وأبا جهل بن هشام وقوله للنبي ﷺ : لتتركن سب آلهتنا أو لنسب إلهك ونزول قول الله تعالى فيه :

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنعام] .

والنضر بن الحارث بن كلده بن علقمه ـ ومنهم من يقول علقمه بن كلده ـ قال السهيلي وجلوسه بعد النبي ﷺ حيث يتلو القرآن فى مجالسه ويدعو إلى الله، فإذا ما قام رسول الله ﷺ جلس النضر يتلو عليهم شيئاً من أخبار رستم واسفنديار وما جرى بينهما من الحروب فى زمن الفرس ، ثم يقول والله ما محمد بأحسن منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها فأنزل الله تعالى :

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان] .

إلى آخر أحداث هذه المرحلة القاسية التي تناولت السيرة النبوية فيها العداء المتوحش والحرب بين القلة المؤمنة والتي تبعت رسول الله ﷺ وبين عمالقة الكفر والشرك ...» وإذا بعمر بن الخطاب قوة قريش فى حربها مع محمد ﷺ يعلن إسلامه ليأتى بعد ذلك ما سطره الله فى كتابه وأراده فى وقته أن يكون خليفة أبى بكر بعد رسول الله ﷺ ويدفن مع النبى وصاحبه إلى أن يبعث الله الناس جميعا ».

ونكتفي بتلك اللقطات الخاطفة عن بعض المتاعب والآلام التى لاقاها المسلمون فى بداية الدعوة حتى لا نذهب بعيداً عن مضمون هذا الكتاب . وتتوالى الأحداث ...... وتموت خديجة رضي الله عنها ويموت أبي طالب كافل النبي ﷺ وازداد موقف قريش العنيد أكثر عناداً وأكثر اضطهادا ، وتجمدت الدعوة فى مكة بموقف قريش منها وتحالفهم على حربها بشتى الوسائل مما جعل بقية العرب تقف موقف التحرز والانتظار فى ارتقاب المعركة بين رسول الله ﷺ وعشيرته الأقربين وعلى رأسهم أبو لهب وعمرو بن هشام وأبو

سفيان بن حرب وغيرهم .

وكان رسول الله ﷺ قد اتجه إلى الطائف فى محاولة أخرى يجد فيها قاعدة آمنة للدعوة فذهب يدعو ثقيفا ، ولكن المحاولة لم تكلل بالنجاح لأن كبراء ثقيف استقبلوا رسول الله ﷺ أسوأ استقبال فيردونه أعنف رد ، ويغرون به صبيانهم وسفهاءهم يقذفونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين ويلجئونه إلى شجرة يستروح ظلها ويدعو ربه :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني.. إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك »[1] .

ثلاثة عشر عاماً في مكة تحت ضغط الاضطهاد والأذى وعناد المشركين وكفرهم واجتماعاتهم وتآمرهم على إيقاع الشر والأذى برسول الله ﷺ وأصحابه والقلة التى استنكروا عليها إتباع النبى عليه الصلاة والسلام وأذاقوهم أشد أنواع العذاب .

وهمّ أهل مكة بإخراج رسول الله ﷺ من أحب البلاد إليه ، وقد ذكر أنه لما تنزل قول الحق تبارك وتعالى فى فرعون :

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الإسراء] .

كان فى هذا بشارة لرسول الله ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية ونزلت قبل الهجرة .. وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم منها .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الإسراء] .

١٠ ـ خاتمة الصراع بين الوثنية الوقحة والحنيفية السمحة .

وضاقت قريش بمحمد ﷺ ذرعاً كما تضيق القوة الغاشمة دائماً بكلمة الحق لا تملك لها دفعا ولا تطيق عليها صبراً .

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٢١٠ .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال] .

وكانت خاتمة الصراع بين جبابرة الوثنية وبين الحنيفية السمحة أن يدبروا مؤامرة لاغتيال محمد ﷺ ، فأتمرت به وقررت أن تتخلص منه ، فأطلعه الله على ما أتمرت وأوحى سبحانه إليه بالهجرة انتقالاً بالعقيدة من وطن كثر فيه الباغي وقل فيه الناصر إلى وطن أخر تأمن فيه دعوة الإسلام على نفسها ، وانتقلت الدعوة بالهجرة من مكة إلى المدينة بأمر الله تعالى ، واختار رسول الله ﷺ الرفيق والصديق أبو بكر الصديق .. وخرج النبي ﷺ من أحب المواطن إليه وإلى الله ، ولولا أن أهله أخرجوه منها ما خرج ، والرسول بشر فقد أصابه وأصحابه الأسى والحزن والألم حين خرجوا من أحب بلاد الله إلى الله ورسوله تاركين الأهل والمال وكل ما جمعوا فى دنياهم لا يعلمون ما يخبأ لهم .

ومثال من الأمثلة لصهيب الرومي والقوم يهددونه ... أتيتنا صعلوكاً فكثر مالك ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، وهو يشترى الهجرة ببذل ماله وعذاب نفسه وتلك معادلة صعبة عند الناس ، ولكنها يسيرة عنده ومستعذبه إستحق بها قول النبي ﷺ : ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع ياصهيب .

وما من حادث ضاق به الناس ذرعاً إلا وأعقبه بعد حين طال أو قصر الخير والفرج ،، فتلك هى سنة الحياة ، فمع الشدة التى كان فيها رسول الله ﷺ من جهاد هؤلاء المشركين رجاءً وفرجا بأن يظفره الله بهم حتى ينقادوا للحق طوعاً أو كرها قال تعالى :

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح] .

وكان رسول الله ﷺ علي بينة مما يبيت كفار قريش عند بداية هجرته ﷺ بما كان يأتيه من ذلك الغلام الشاب عبدالله بن أبي بكر الذى كان يتقصى الأحاديث ويستشف المكائد ويستخلص الأسرار ثم يمضي بها إلى رسول الله ﷺ وهو الذي لو شاء الله لأطلعه وحيا على الشاردة والواردة ويستغنى عن مشقات البحث والسعى ، ولكنها سنة الله ومراده ان يستوفى الإنسان وسعه .

وهذا هو عبدالله بن أريقط الرجل الصادق فى وعده الناهض بعهده وتلك أخلاق العرب ، والناس معادن ـ أوفى ابن أريقط وجاء بالراحلتين استلمهما من أبي بكر قبل الهجرة ليحضر بهما فى الزمان والمكان المتفق عليهما .

صورة مشرفة للوفاء بالوعد وصورة أعظم تشريفاً لهذا الصديق أبوبكر ﷺ ، الذى

رافق النبي ﷺ وصدقه فى كل ما جاء به من عند الله .

واشترط رسول الله ﷺ أن يؤدى ثمن راحلته فيأخذها شراء لا عطاء ، وهى أخلاق التعامل الفضل ، فسن بذلك عليه الصلاة والسلام أنه لا حرج بين إثنين فى تأدية الحقوق المتبادلة دون أن يؤثر ذلك على عمق المودة أو يخدش قدسية الأخوة فى الله حتى ولو كان أحد الطرفين رسول الله ﷺ والأخر صفيه وأقرب صحابته والمقدر فى عالم الغيب أنه خليفته من بعده «أبوبكر الصديق ﷺ » ، وذلك مبدأ من مبادئ [الدين المعاملة] ... وأى معاملة تليق بتعامل الناس أفضل من معاملة الإسلام وتشريع الإسلام ؟

الإسلام الذى جعل رسول الله ﷺ يتخذ خبيره من غير دينه دليلاً لطريقهم فكان عبدالله بن أريقط الليثي هو الدليل ولم يكن مسلماً ولكنه كان على خلق وصدق ومعرفة وعلم فأتخذه رسول الله ﷺ خبيراً وهو على دين كفار قريش ليكون الدليل لخبرته بمسالك الطريق ـ فسن بذلك رسول الله ﷺ لأمته الإفادة من الخبراء الأجانب شريطة التأكد من سلامة أخلاقهم وعمق معرفتهم وحيادهم فى عملهم .

هذا ولم يخط رسول الله ﷺ خطوة واحدة فى طريق هجرته إلا بعد أن تأكد تماماً إلى أين سيضع قدميه ، وأخذ العهود والمواثيق أن ينصره سادة المدينة وزعماؤها يجتمعون على حمايته كما يحمون أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، ذلك لتتعلم الإجتهاد والأخذ بالأسباب وترك التوفيق لله سبحانه وتعالى ... وكان الإسلام قد دخل بيوت يثرب بعد بيعة العقبة ، وفى إنتظار قدوم رسول الله ﷺ .

١١ ـ أهل يثرب فى زينة ورسول الله فى المدينة .

واستقبل أهل يثرب رسول الله ﷺ أعظم استقبال فى مهرجان عظيم يضربن الجوارى فيه على الدفوف وينشدون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وكانت الهجرة بداية لمرحلة جديدة انتقل الإسلام فيها من دين تحمله جماعة مستضعفة إلى دين تؤيده عصبة قوية ،، ووصل الإسلام بإذن الله مشارق الأرض ومغاربها وأصبحت كلمة الله هى العليا وكلمة المشركين والذين كذبوا برسالة محمد ﷺ في مكة وغيرها هي السفلى .

قال ابن اسحق : لما خرج رسول الله ﷺ مهاجراً إلى الله يريد المدينة قال : الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا ، اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام ، اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللنى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، وإليك ربى فحببنى ، وإلى الناس فلا تكلنى ، رب المستضعفين وأنت ربى . أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، وأعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نقمتك ، وتحول عافيتك ، وجميع سخطك لك العقبى عند خير ما استطعت ـ لا حول ولا قوة إلا بك(١) .

... وهكذا كانت المواجهة بين الحق والباطل استمرت ثلاثة عشر عاماً بالصبر والجهاد وبالكلمة واحتمال الأذى ، ومن الفريق الأخر عناد وعداء لا يكف عن الإيذاء والاضطهاد ، وهكذا نصر الله نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وعذبه وعاداه ـ فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية .

١ ـ وفى المدينة النبوية تآخى المهاجرون والأنصار وحدثت الألفة بينهم وجعل الله لنبيه ﷺ أنصاراً وأعوانا .

٢ ـ ومن المدينة المنورة أرسلت الوفود تنادى بالسلام إلى الإسلام.

٣ ـ وفى المدينة المنورة وقعت المفاوضات والمعاهدات والمحادثات بين رسول الله ﷺ وبين اليهود الذين نقضوا العهود فدارت عليهم دائرة السوء وتطهرت منهم أرض يثرب وأعز الله المسلمين .

٤ ـ ثم جاء أهل اليمن منهم المؤذنون ومنهم القارئون رقيقة أفئدتهم لينة طباعهم وعظيمة خشيتهم ، نفس الله بهم الكرب عن نبيه صلى الله عليه وسلم وكثرت أعوانه وأنصاره .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : أتاكم أهل اليمن هم أصفي قلوباً وأرق أفئدة ـ الفقة يمان والحكمة يمانية .

٥ ـ ومن المدينة المنورة انطلقت جحافل جيوش المسلمين تدعوا إلى الحق وترفع لواء الإيمان ـ ومنح الله رسوله ﷺ أكتاف المشركين يوم بدر التى فرق الله بها بين الحق والباطل والهدى والغى ـ ونصره عليهم ، وخذلهم وقتل صناديدهم .

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٢١٠ .

٦ ـ ثم كان بعد ذلك فتح مكة التى أخرج منها رسول الله ﷺ ، وهى البلد الحرام ، وانقذه الله تعالى مما كان فيها من الكفر والشرك ـ البلد التى أخرجته وآذته وحاربته ووقفت فى طريق دعوته بالعناد والاضطهاد .

وأورث الله رسوله مكة المكرمة فدخلها عنوة وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرما .

١٢ ـ ما بين بدر ومكة نصر وخير وبركة .

فكان النصر فى غزوة بدر تأسيساً لبناء الدولة الإسلامية ، وكان فتح مكة استكمالا للبناء وحماية لصرح العقيدة الإسلامية .

...فى بدر قضى على رءوس الشرك ، وقتل أمية بن خلف رأس الكفر والذى كان يعذب بلالاً بمكة على الإسلام وفى بعض الروايات أن بلالا هو الذى قتله ، وقتل أبى جهل وقيل فى بعض الروايات عن ابن مسعود قال: كان يقول لى إرتقيت صعباً يارويعى الغنم ، قال : ثم إحترزت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله : هذا رأس عدو الله ـ فقال الله الذى لا إله غيره ؟ وكانت يمين رسول الله ﷺ ـ فقلت نعم والله الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدى النبي ﷺ فحمد الله هكذا .

ذكر ابن اسحق رحمه الله تعالى : وقتل النضر بن الحارث وقتله على بن أبى طالب ، ثم قتل عقبة بن أبى معيط لعنهم الله ـ وحين أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة ـ قال لرسول الله ﷺ : فمن للصبية يا محمد ؟ ـ قال :« النار » وقد قيل أن الذى قتله عاصم بن ثابت بن أبى الأملح أخو بنى عمرو بن عوف .

قال عقبة : أتقتلني يا محمد من بين قريش ؟ قال نعم ! أتدرون ما صنع هذا بى ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عِنقى وغمزها ، فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستذران ، وجاء مرة أخرى بسلا شاه فألقاها على رأسى وأنا ساجد ـ فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي ـ قال بن هشام : ويقال بل قتل عقبة على بن أبى طالب « فيما ذكره الزهرى وغيره من أهل العلم » إلى أخر أحداث يوم بدر التى إشتهر أن الأسرى يومها كانوا سبعين ، والقتلى من المشركين سبعين ، وأقوال أخرى ـ كلها تأتى بنتيجة واحدة هى نصر الله المبين لعبادة المؤمنين[1] .

فقضى على رؤوس الشرك وعباد الأصنام والمستهزئين فى مكة برسول الله ﷺ ، المكذبين لرسالته ودينه .

---

(١) البداية ٢/ ٢٩٩ : ٣٥٨ .

ومن عدل الله أن حظ الطغيان دائماً خاسر وأنه على الباغى تدور الدوائر .

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء] .

وفى فتح مكة قضى على الأصنام التى كان يعبدها هؤلاء الطواغيت، وأعلنت الحرب الشعواء على معبودات المشركين يحطمها الفاتحون .. ويقف رسول الله ﷺ أمام الكعبة المشرفة بعد الفتح وعليها وبجوارها ستون وثلاثمائة صنم تعبد من دون الله ، فينكثها على رؤوسها ، ويكبها على وجوهها ويحطمها ، ويشير إليها بيده الشريفة وهو يتلو قول الحق تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء]

ويرسل ﷺ رسله وسراياه ومبعوثيه إلى القبائل لتستأصل البقية الباقية من الأصنام ، فقد عبدت العرب تماثيل وأنصاب مختلفة الألوان والأشكال .

كان « هبل » وهو أعظم الأصنام المنصوبة بجوف مكة من عقيق أحمر على صورة إنسان وكانت «اللات» صخرة مربعة الشكل منصوبة بالطائف .

وكانت « ذو الخليصة»بمروة «حجارة صلب تعرف بالصوان بيضاء ومنقوشة عليها كهيئة التاج» .

وكان « الصليب » هو الأخر وثناً من الأوثان التى قدسها النصارى.

فكان الشرك عقيدة سائدة قبل عصر النبي ﷺ ..وذهب رسل رسول الله .. هذا يهدم اللات وذلك يستأصل العزى ـ إلى آخر الأصنام التي عبدت من دون الله ، واندحر الشرك الذى طال الإنتظار لاندحاره .

وحقق الله وعده لرسوله ﷺ ودخل مكة على ناقته خاشعاً متواضعا فى عظمة العفو عند المقدرة ليعطى درساً لأمته فى أعظم النفوس التى تسمو على الأحقاد وعلى الانتقام مهما كان هؤلاء الذين ظلموه وغذبوه هو وأصحابه وهموا بقتله وأخرجوه وأتباعه من ديارهم وأهليهم وأموالهم ولم ينفكوا عن محاربته والكيد له بعد أن ترك لهم مكة .

... يدخل عليه الصلاة والسلام فاتحاً لمكة المكرمة قائلاً للقرشيين : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ـ أخٌ كريم وابن أخ كريم .. قال اذهبوا فأنتم الطلقاء[2] « هذه سماحة الإسلام وعفو الإسلام الذى يتهمه الغرب الأن بالإرهاب وهو الذى يحارب الإرهاب».

---

(١) ورواه البخاري ومسلم (ابن كثير ٣ / ٥٩).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٤١ .

وكما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وكنوزهم ، فتحت مكة وفتحت اليمن والمدائن والقصور والحصون وسائر البلاد ، ودانت لرسول الله ﷺ جزيرة العرب بكاملها ... وأورث الله المسلمين والمؤمنين ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفا ، بعد أن منح رسوله ﷺ رقاب المتجبرين بقتل رجاله مشركيهم ، وبعفوه هو ﷺ عن أسراهم «اذهبوا فأنتم الطلقاء ... يا لسماحة الإسلام ، وعفو الإسلام ، وحلاوة الإسلام » .

بذلك أعاد رسول الله ﷺ لعقيدة التوحيد صفاءها ونقاءها وطهرها من الشرك والوثنية ... ووضع القواعد والأساس الذى عليه تكون صلة الإنسان بربه وصلته بالناس ... ووضع دستوراً لمجتمع تنمو فيه القيم وتعلو فيه المبادئ الصحيحة المستقيمة والأخلاق العالية الرفيعة وكل معانى الفضائل الكريمة والأعمال الصالحة الجليلة ... واسترد للبشر كرامتهم وإنسانيتهم ، فصار المسلمون الأولون سادة العالم وأقاموا للمسلمين دولة وسلطاناً وحكومة وقيادة،وجعلت لهم قوة وكياناً ، وأخضعوا لحكمهم فارس والروم ، وامتد ظلهم إلى بلاد السند شرقاً وإلى أرمينيا والروس شمالاً ، ودخل فى عدلهم بلاد الشام ومصر وبرقه وطرابلس وبقية أفريقيا .. وتلك مشاهد تاريخية باقية بصماتها إلى الأبد ولا يملك أحد فى هذا العالم إنكارها أو تجاهلها.

وفى عهد بنى أمية امتد سلطانهم ودخلوا بلاد السند والهند ، وحدود الصين شرقاً وبلاد الأندلس بغرب أوروبا ... وقد غزا المسلمون الهند فى سنة أربع وأربعين فى إمارة معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه وكان نواب بنى أمية يقاتلون الأتراك فى أقصى بلاد السند والصين وقهروا ملكهم القال الأعظم ومزقوا عساكره وأستحوذوا على أمواله وحواصله .

وقد حذر رسول الله ﷺ المسلمين من أيامهم القادمة بعده حين تتحقق أشراط الساعة وتقوم الفتن بين الناس ، وعلينا أن ننتبه جيداً لكل ما حذرنا منه رسول الله ﷺ وأن نستقيم على سنته فى كل حياتنا أسوة بهؤلاء الذين نشروا راية الإسلام فى كل ربوع العالم وحتى يظل هذا الدين هو القيم إلى يوم القيامة ، وإن رسول الله ﷺ لم يحدد مدة معينة لقيام الساعة ولكنه ﷺ ذكر أشراطها وأماراتها وعلاماتها ـ ومن هذه الأشراط يرفع العلم

ويظهر الجهل ويفشو الزنا وتشرب الخمر ويذهب الرجال وتبقى النساء حتى يكون لخمسين إمرأة قيم واحد [١] .

وقال عليه الصلاة والسلام إذا فعلت أمتي خمس عشر خصلة حل فيها البلاء ـ قيل وما هي يا رسول الله قال : إذا كان المغنم دولاً « أى تكون الغنيمة لقوم دون قوم وذلك عندما يستأثر بها الأغنياء وأصحاب المناصب ويعتقد أنها ملك له .. والأمانة مغنما «أى من يأخذ أمانة يغتنمها ولا يردها لصاحبها» والزكاة مغرما «أى يشق على من تجب عليه الزكاة أداؤها فيعد إخراجها غرامة» ، وأطاع الرجل زوجته ، وعق أمه ، وبر صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أرذ لهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات «المغنيات »، والمعازف « آلات اللهو الموسيقية ، ولعن أخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريح حمراء « أى ريح رمليه ملونه » ، أو خسفاً أو مسخاً [٢] .

بهذا النبي العظيم هزم عرش قيصر الروم وأطيح بإيوان كسرى الفرس ، وقامت الدولة الإسلامية على التوحيد والعدل والحرية والكرامة والإنسانية والمساواة بين الناس لتحل محل الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية اللتين كانتا قائمتين على الشرك والظلم والاستبداد والاستعباد ، وامتدت فيما بعد كما ذكر من المحيط الأطلسى غرباً وحتى الهند شرقاً في فترة لا تتجاوز قرناً من الزمان « والزمان كان على موعد مع رسول الله ﷺ ليكون المنقذ للبشرية من الضلال والمواريث المشركة من القرون السابقة الغابرة » .

وهكذا الحال عندما تصل أمة إلى درجة كبيرة من الفساد والانحطاط والرفاهية والكفر بالنعمة ، لابد أن تنهار وتتهاوى تحت أقدام أمة أخرى .

ومن عظمة رحمة الله بعباده أن تأتى هذه الأمة التى تحرر الناس من العبودية لغير الله ، وتقيم ميزان العدل والقسط ، وتكون سيدة الأمم وخيرها إلى يوم الدين .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب] .

---

(١) رواه ابن ماجه عن قتاده عن أنس ﷺ .

(١) من حديث حذيفه فى إقتراب الساعة ورواه أبي نعيم فى الحلية وهى إثنتان وسبعون خصلة ذكر منها هذه الخمسة عشر والحديث قد ضعف ولكنى نقلته من الكتب لشهادة الجميع من العلماء بأن هذه الأحداث وقعت من آمارات الساعة .

ودخل العرب وغيرهم جماعات جماعات فى دين الله أفواجا ، فكانت نهاية الرحلة التى اقترب معها الفراق بإنتهاء أجل رسول الله ﷺ ولقائه بالله .

قال سبحانه وتعالى :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر] .

لقد كان عند رسول الله ﷺ سبعة دنانير فى مرضه الأخير .. فقال يا عائشة : إبعثي بالذهب إلى على .. ثم أغمى عليه، وشغل عائشة ما به ، حتى قال ذلك مراراً كلما أفاق .. كل ذلك ويغمى عليه صلوات الله وسلامه عليه وتشغل عائشة بما به .. فبعث حين أفاق بنفسه إلى على الذهب فتصدق بها ـ ولم يبق فى بيته ﷺ حين مات شيئاً [١] .

وعن أنس ﷺ قال : لما ثقل رسول الله ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة رضي الله عنها : واكرب أبتاه ، فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد اليوم .. فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه ـ فلما دفن قالت فاطمة : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب [٢] .

وروى أنه لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال :

مروا أبا بكر فليصل بالناس .. قالت : فقلت يارسول الله إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر.فقال : مروا أبا بكر فليصلي بالناس [٣] .

قال على ﷺ : لما قبض رسول الله ﷺ نظرنا فى أمرنا فوجدنا النبي عليه الصلاة والسلام قد قدم أبا بكر فى الصلاة فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله ﷺ لديننا .. فقدمنا أبا بكر [٤] .

وسنة الدنيا على الدوام هى الفراق بعد الجمع والإكتمال ، وتلك طبيعة الأيام فينا حين يبدد نورها بعد الكمال .

واستطاع رسول الله ﷺ أن يسلم الإسلام لأصحابه الخلفاء ورجاله التابعين ديناً لا

---

(١) رواه الطبراني .

(٢) انفرد بإخراجه البخاري فى كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته .

(٣) أخرجه البخاري فى كتاب الأذان ومسلم فى كتاب الصلاة .

(٤) صفوة الصفوة لابن الجوزى ١/ ١١٣ .

غموض فيه ولا تعقيد ، يدعو إلى وحدانية الله ـ وعقيدة واضحة وبسيطة وميسرة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف ، تبين لنا الطريق إلى الله وتكشف لنا المصير: قرآناً وسنه ، وعبادة وأخلاقاً ومعاملة ، وكل ما تحتاج إليه البشرية إلى يوم الدين .. دين السلام والأمان والعزة والأمن والاطمئنان ... شرفاً لأمة محمد ﷺ وهداية لبني الإنسان ـ فبلغوا عنه دين الله ، ودعوا العباد إلى الله ، وفتحوا البلاد والأقاليم والمدائن والقرى ، وفتحوا القلوب لنور الله ، وحب رسول الله ﷺ واتبعوا منهجه واقتدوا بأثره وسنته .. حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها ، ثم ولا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة .

ثلاثة وعشرون عاماً قضاها رسول الله ﷺ فى دعوة الناس إلى الله .. تم له تبليغ ما أمره الله به وجمع الناس عليه .. وترك للبشرية ميراثاً عظيماً يهتدى به الناس إلى سبل السلام ، وتركه عظيمة ذات مساحات واسعة وعريضة ، وحدود ليس لها نهاية إلا عند الجنة أو النار .. حوت هذه التركة منهج السماء لأهل الأرض فى العقيدة والأخلاق ، والسلوك والإيمان ، والعبادات والمعاملات ... وشملت حياة الناس وحل مشاكلهم وصلاح حالهم وبالهم ، ودفعت فى الأرواح أمارات العدل والرحمة والطهر والعفة والإحسان ..... وأورثت المحبين ميراث العلم والنور والهدى والحق والصلاح ، وأنقذت البشرية والإنسانية المعذبة من الظلم والظلام والباطل والشر والضلال ، ودعت إلى الفضائل الكريمة والأخلاق العظيمة ، وأمرت بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ونهت عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وخلصت الخلق من عبودية الخلق للخلق بالإخلاص فى العبادة والعبودية للخالق الرازق المنعم ، وأعلت المبادئ والقيم ، وأرست على قواعدها ما يرقى به الإنسان إلى أعلى درجات الكمال والجمال ... فى وحدانية لله لا تتزعزع ، وطاعة لله لا يمل الله منها حتى يمل العبد ، وأبواب كثيرة وواسعة يدخل منها المؤمن إلى جنة الله وفضله ورحمته .... ولن يأتى أخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها .

.. تركها عليه الصلاة والسلام على المحجة البيضاء صالحة للزمان ولكل زمان وفى كل عصر وأوان .. يقودنا القرآن فيها للحق والنظام ، وتعطينا سنة الرسول الكريم الأمن والأمان والعز والاطمئنان .

والقضية التى يجب أن تكون الأن فى حياتنا الدنيا هى علاقتنا بالله وكيف تستقر، وعودتنا إلى الله وكيف نستعد لها ؟

ذلك ما نتناوله فى الأنصبة الذهبية التى شرح الله صدرى فى إختيارها من لسان العلماء

ورثة الأنبياء لتبين لنا الطريق فنتهتدى بها إلى رضوان الله ، ورحمة الله .. ونجازى بها الخير والنعيم فى جنات الله بإذن الله تعالى : ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر] .

ثـانيـاً : أمور للإحاطة والتذكير قبل أنصبة الميراث الكبير

وقبل أن نتوجه إلى الكنوز الربانية والنفائس الكريمة النبوية نأخذ منها ما يعيد النفوس إلى فطرتها ، والقلوب إلى عقيدتها ، والعقـول إلى خالقها ... وجب التعرف على عدة أمور أهمها ما يلى :

الأمر الأول : ١ ـ غربة الإسلام فى أهله قدر السـابقين و اللاحقين [١] .

وأى شيء أشد على النفس من أن تكون فى دارك ووطنك ، وفى بلدك وبين أهلك وأنت تشعر بالوحدة وتحس بالغربة !!!وكم منا من يعيش فى نفسه وفى أهله وهو غريب .

أهل الفجور وهم أصحاب أهواء ـ غرباء وسط أهل الحق لا يطيقون معايشهم بدعوى أنهم متزمتون .. وتلك غربة مذمومة .

وأهل الحق أنفسهم صاروا غرباء باعتناق كل حزب منهم لمذهب من المذاهب يرفض رأى بقية المذاهب، فلم يعد يستجيب إليهم أحد ، وخلقوا الشك بذلك فى نفوس الناس .

وأهل الإيمان تنوعت غربتهم فمنهم من هو فى غربة مع نفسه حينما يراها عاصية عليه وجانحة ، بينما هو يريد الطاعة ويريد الإستقامة، قال تعالى :

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة] .

ومنهم من هو فى غربة مع من لا يشاكله فى إيمانه يقول رسول الله ﷺ: الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف[٢].

ومنهم من هو فى غربة عن الدنيا ، قال عليه الصلاة والسلام : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[٣] .

---

(١) تهذيب مدارج السالكين للإمام بن قيم الجوزية (منزلة الغربة / ٥٧٧) .

(٢) رواه مسلم من حديث أبو هريرة - والبخاري تعليقاً من حديث عائشة .

(٣) رواه مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وروى الترمذي من حدث سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ قال : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضه ما سقى كافر منها شربة ماء .

فهي سجن للمؤمن لما أعده الله له من النعيم وهى جنة للكافر لما أعد له الله من الشقاء.

وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ـ فطوبي للغرباء. قيل يا رسول الله : ومن الغرباء ؟ قال عليه الصلاة والسلام : الذين يصلحون إذا فسد الناس ، وفى رواية أخرى الذين يفرون بدينهم من الفتن، وفى رواية أخرى الذين يحيون ما أمات الناس من سنتى ، وكان الإسلام فى بدايته غريباً لسبق الكفر عليه ، وإنكار الكفار له ، كان غريباً فى شعائره التى تهدم الأوثان ، وتحطم الأصنام ، وتكفر بالأولياء من دون الله حتى قال المشركون :

﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ [ص] .

وكان المسلمون نزاعاً من القبائل يخالف المسلم قبيلته وينزع عنها وعن دين أبائها وأجدادها ـ فمن الروم كان صهيب ، ومن الحبشة كان بلال ، وكان سلمان من الفرس ، وعمار من العرب .. تفرقت أوطانهم واجتمعت قلوبهم ، وصار الإسلام وأمره إلى عزة ومنعة .. قلة قليلة مؤمنة استطاعت فى أقل من مائة عام أن ترفع راية الإسلام على ممالك كسرى وقيصر وفوق ربوع إفريقيا والهند والصين وفرنسا والأندلس .. فما هو السر فى ذلك والذى خير الناس من كل الأجناس ؟ ... إنه الإيمان الصادق بالله رب العالمين أزال سبحانه وتعالى به الغربة منهم.. ذلك ما كان وما قد كان فى سالف العصر والأوان .. وأما الآن فقد زادت الغربة بعد أن تفرق المسلمون واختلفوا وباعوا دينهم بدنياهم ... ومن ثم سيعود الدين ، أو يعود الإسلام غريباً كما بدأ لغلبة الجهالة ، وكثرة الضلالة ـ عندما صار أهل الحق يرميهم أهل الباطل بأنهم هم أهل الباطل !! . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝١١٢ ﴾ [النساء] .

أو أن الإسلام كان فى الزمان الأول كالغريب لا يعرفه أحد ومتى تركه أهله وانصرفوا عنه عادت له الغربة .أو أن أهل الدين فى البداية كانوا غرباء ينكرهم الناس ويقاطعونهم ، وكان حالهم مع أقاربهم أسوأ من حالهم مع الأجانب ، وسيكون الأمر كذلك فى أخر الزمان ويعود الإسلام غريباً ،، حين يصير المعروف منكراً والمنكر معروفا ، وتصير السنة بدعة والبدعة سنة ، ويقوم الناس على أهل السنة باللوم والتوبيخ ، ولا يجد أهل الحق على

الخير أعوانا . وتزداد غربة المؤمن عندما يدعو كل صاحب بدعة إليها ، ويحض الناس على التأسي به ، وهنا ينشأ الخلاف وتنشأ الفتن .

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١] .

والموت خير للمؤمن من الفتنة التى تمزق كيان هذه الأمة وتشعل نار الفرقة والاختلاف والعصبية بين أبناء الأمة الواحدة وتهوى بها إلى الضياع .

أخرج الطبراني عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال : إن الإسلام قد أقبل وله ثبات وأنه يوشك أن يبلغ نهايته ، ثم يزيد وينقص ألى يوم القيامة، وآية ذلك .. أى علامة ذلك : فاقه تفظع إلى درجة معها لا يجد الفقير من يعود عليه ، ويرى الغنى أن ما عنده لا يكفيه ، وأن يشكو الرجل إلى أخيه وابن عمه فلا يعود عليه بشيء .. ويمشى السائل بين الجمعتين فلا يوضع فى يده شيء ، حتى إذا كان ذلك خارت الأرض [١] خورة لا يرى أهل كل ساحة إلا أنها خارت بساحتهم ، ثم تهدأ عليهم ما شاء الله ، ثم تتفاحم الأرض [٢] تفيء أفلاذ كبدها ... قيل يا أبا عبدالرحمن : ما أفلاذ كبدها ؟ قال بن مسعود ﷺ: أساطين ذهب وفضة ، فمن يومئذ لا ينتفع بذهب وفضة إلى يوم القيامة .

٢ـ ويعود الإسلام غريباً ولا ملجأ من الله إلا إليه :

وغربة الإسلام هذه المرة شديدة جداً فهى بين أهله إذا افترقت أمة الإسلام إلى فرق شتى ثلاثاً وسبعين كلها فى النار كما جاء بحديث النبي ﷺ إلا واحده هى أهل السنة .

قال عليه الصلاة والسلام : إفترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار ، وافترقت النصارى على إثنتين وسبعين فرقةَ ، فإحدى وسبعون فرقة فى النار وواحدة فى الجنة ـ والذى نفس محمد بيده لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة [٣] .

وتلك الغربة وكأنها سنة من سنن الحياة أصابت الخلق وعلى رأسهم الأنبياء الذين

---

(١) أى خرج لها صوت .

(٢) أى تلقى ما فى جوفها على سطحها .

(٣) رواه بن ماجه ٢/ ١٣٢٢ وصححه الألبانى (أنظر صحيح الجامع الصغير ١/ ٣٥٧ والأحاديث الصحيحة وهناك روايات أخرى فى مسند الإمام أحمد (٤ / ٤٠٢) .

يفرون بدينهم من الفتن ويعتزلون أهل الباطل ـ فلما ابتلى الله قوم فرعون بالنعمة والسلطان جاءهم موسى عليه السلام رسولاً يدعوهم للإيمان .

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ [الدخان] .

فأصروا على البطش والطغيان ولم يستجيبوا لدعوته فلجأ إلى ربه الملاذ الأخير.

﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان] .

فاستجاب له ربه ليتم قدر الله بهلاك الطغاة والمجرمين،قال سبحانه وتعالى:

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان] .

ولما قال لوط لقومه :

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف] .

يدعوهم إلى منهج الله المتمثل فى الفطرة السوية أن المرأة هى الموضع الشرعى فأصروا على الشذوذ والانحراف ليبقى فى القرية الملوثون المدنسون .

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف] .

تفلجأ إلى ربه الذى نجاه منهم وأهلكهم بما فيه إمرأته ألصق الناس به، إذ كانت من الغابرين المهلكين ، وأنزل الله المطر والعواصف لتطهر الأرض من دنس الوحل الذى عاشوا وماتوا فيه .

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف] .

وإبراهيم عليه السلام حين دعا آباه إلى الحق قابله بالاستنكار والوعيد :

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم] .

ولما انتهى أمر إبراهيم مع أبيه وقومه أرادوا به الهلاك فهاجر عليه السلام بنفسه إلى الله .. إلى دار لا يحس فيها بالغربة .

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات] .

وقد تناولنا فى مساحات أوسع بالحديث عن هذه الأقوام وأنبيائهم فى بداية الكتاب ..

وهكذا يفر المسلم بدينه من الفتن ويعتزل أهل الباطل ، ويطلب منهم أن يعتزلوه .

وفى وسط هذه الغربة التى ألمت بنا نلتمس الهدى من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ آخذين بالأسباب عسى الله أن يعيد الود بيننا وبين الإسلام عقيدة وتوحيداً وإيماناً ، ولا نكون غرباء فى بلدنا وفى أنفسنا وبين أهلينا .

فإذا كانت الكربة واليأس والضيق فلا مخرج إلا بالإلتجاء إلى الله مفرج القلوب والتوبة إليه ، وقد أوصانا الإسلام أن نعتزل كل ما هو غريب علينا فى أخلاقه ، وأن نعتزل ظلمه .. فإن الذى يخالط الظالم مع ظلمه فى وقت ظلمه فهو مثله ، ومن أحب قوماً تشبه بهم ، ومن كره قوماً كره أن يتشبه بهم وأحب أن يخالفهم فى كل ما يستطيع مخالفتهم فيه .قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء].

وأوصانا الإسلام بالجماعة والسمع والطاعة وحذرنا من الشيطان وأعلمنا أن الشيطان أقرب إلى الواحد وهو من الإثنين أبعد كما بين لنا الإسلام أن فتنة الرجل فى أهله وماله وولده ونفسه وجاره يكفرها الصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر [1]... ومهما أصاب العبد من الأذى والإبتلاء فإن الدعوة إلى الحق يثيب الله عليها بالجزاء العظيم .. فطوبى للغرباء « أى الجنة لأولئك الذين كانوا أول الإسلام ويكونون فى أخره بما صبروا على الأذى والابتلاءات وتمسكوا بدين الإسلام ينهون عن الفساد فى الأرض ... وتكون غربتهم إلى الله بدوام طاعة الله ودوام ذكر الله ».

الأمر الثاني: أعداء هذا الدين لايملون .

١ ـ أعداء هذا الدين هم أعداء كل البشرية ، لا يملون من حربهم لهذا الدين ، يبذلون الكثير من أوقاتهم وأموالهم فى تشويه صورته ، وتشكيك أبنائه فى عقيدتهم ، وإشعال نيران الفتن بينهم ، وإثارة القلق والاضطراب والحيرة والتخبط بين أبناء الأمة الواحدة بهدف تفكيك وحدتهم وإصابة ترابطهم وتوادهم وتعاطفهم بالشلل ،، فتنشب بينهم

---

(١) فى الصحيحين من حديث الأعمش وجامع بن راشد عن شقيق بن سلمه عن حذيفة وفيه تنبأ رسول ﷺ بمقتل عمر ﷺ وقد تحقق فى سنة ثلاث وعشرين بعد ما وقعت الفتن (الملاحم لابن كثير ص ٧) .

الخلافات ، وتقطع العلاقات ، وتبدأ بينهم شجار السب والإهانات .. فإذا ما أفاقوا من غفلتهم وكشفوا ألاعيب أعدائهم وعادوا إلى رشدهم عاد الأعداء ليفتنوا بينهم .

وهؤلاء الأعداء أعداء الإسلام قد جعلوا لهم أنصاراً من ضعاف الإيمان فى المجتمعات الإسلامية والذين لا تربطهم بالإسلام إلا الهوية أو شهادة الميلاد وهم فى واد والإسلام فى واد أخر ، يفتقدون العقيدة التى تحرك فى نفوس المؤمنين دعائم العزة والكرامة ونخوة الغيرة على الدين والوطن ، فيطيعوهم ويتبعوهم فيردوهم بعد إيمانهم كافرين .

قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران] .

ومع أن فيهم رسول الله ﷺ ويعلمون ما جاء به من الحق إلا أنهم إندسوا وسط هذه القلة ضعيفة الإيمان وزرعوا الخلافات والفتن بين المسلمين .. يحاربون المنهج والشريعة والإيمان وأهله ، ويزعزعون إستقرار المجتمع المسلم والأمة الواحدة ، ويستخدمون كل الإمكانيات لمحاربة هذا الكابوس الذى يقلق راحتهم منذ جاء الإسلام .. يحاربون القرآن ودستوره الإلهي وسنة رسوله ﷺ بكل ما يملكون من أساليب المكر والخديعة ،، يستهينون بتعاليمه المقدسة ويصرفون الناس عن أمور دينهم ، بل ويتبجحون ولا حياء فى ذمتهم أن يطلبوا من علماء أمة الإسلام إعادة برمجة هذه التشريعات الإلهية التى لا تتفق فى رأيهم مع تيارات الحضارة .. وكأنه مؤلف من مؤلفاتهم فى كتاب للفلسفة أو القانون الوضعى . لهم الرأي فيما يجب تعديله من هذه المواد بغرض الإصلاح الذى تولوا إمامته على مستوى العالم ! ولا يعلم من أين أخذوا هذه الإمامة ؟ ! والصداقة التى يربطون بها أنفسهم خداعاً مع بقية الأمم ! ويعلمون جميعاً أن القرآن هو الذى قهر بالإيمان عداوتهم ، وأحبط مخططاتهم ووسائلهم الفكرية والثقافية والإقتصادية والعلمية والعسكرية وما شابه ذلك من مخططات .

﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة].

اكتسح القرآن كل مخططهم وأفكارهم وفسادهم .. ولكنهم لا يملون، ولم تهدأ قوى الشر والبغى والعدوان وعلى رأسها اليهود فى حربها المتنوعة على الإسلام والمسلمين ..

يوسعون قاعدة التعليم للغات الأجنبية، ويشجعون على إنشاء المدارس على النمط الغربى فى كل بلاد العالم مادامت تهمل لغة العرب . لغة القرآن والإسلام فإنهم يعتبرونها فقيرة ومعقدة فى التركيب ولا تستطيع مسايرة النهضة والحضارات .. فسيطرت اللغات الأجنبية على اللسان العربى والإعجاز القرآنى ، قد فعلها الفرنسيون من قبل في مصر بعد عام ١٧٩٨ وجعلوا المدارس فرنسية .. فلما طردوا من مصر أحل الإنجليز مكانهم بالثقافة الإنجليزية .. وهكذا فكل همهم دحر ما هو من لغة العرب أو تابع للغة القرآن الكريم .

إن تعليم اللغات شيئ عظيم ولابد منه لمواجهة التحديات ولدينا أمر نبوى أمر به الإسلام بتعلم لغة أعدائنا .. ولكن ليس على حساب لغة القرآن التى تجتمع عليها كلمة المسلمين وتلتقى عليها مواطن العزة والقوة والكرامة .

ومن أبرز وسائل غزوهم الغزو الفكرى والثقافى وما جذبوا به شباب الأمة إلى الضياع ،، وإن هذا الغزو لأشد خطراً من الغزو العسكرى .. الغزو العسكرى معلوم بدايته ونهايته ، ولكن الفكرى ليس له نهاية ، يتوارث فيه كل جيل من سلفه الإنحلال والأفكار الهدامة من بين المسلسلات والأفلام الهابطة وخاصة الجنسية منها على محطات التلفاز الفضائية والتى دخلت الآن كل البيوت إلى درجة يرثى لها .. حيث يرث الجيل الجديد ذلك الميراث فيعلم من أمر الروتانا سينما والروتانا طرب وروتانا أغاني والـ M B C صاحبة الأفلام الأجنبية المغربة ومواعيد المسلسلات ما لا يجيده فى معرفة أمر دينه ، فصار بذلك التلفزيون أخطر أنواع الغزو الثقافى تأثيراً لإمتلاكه حاستى السمع والبصر وقدرة الإغراء بالألوان الجذابة الساحرة ، فيعكس ذلك سلوكاً فى التربية يناقض تعاليم هذا الدين الذى يدعو إلى الفضيلة والأخلاق ..

وللأسف لا يملك أحد أن يرد هذا الغزو الذى تحقق به ما يريد أعداء الدين ..... وشأننا أن نذكر أولياء الأمور بسرعة الحيطة والحذر من هذا الشيطان الذى تعددت جوانبه المفيدة لمن أراد السلامة والهداية ، ولمن يتحكم فى هذا الجهاز غيرة على دينه فى البعد عما يخالف تعاليم الإسلام ، فيتم التوازن بين الأمور فلا يفقد أحد الدين كما أفقده أعداءه الدنيا .

٢ ـ المجد للمسلمين فاحذروا كيد المعتدين :

إن الحضارة الغربية غارقة فى الفساد والشذوذ الجنسى والوباء لما فيها من الحريات المفرطة والتى وصل فيها الأمر إلى درجة الإباحية فزاد بها معدلات إغتصاب الأطفال وتعاطى المخدرات لشباب هذه البلاد باسم الحضارة والحرية .

ونحن باسم الله وجلال الله نتمتع بالطهارة والشرف ولا يحق لنا أن نربط أنفسنا بهذا الجانب المزيف من الحضارة ، ولنأخذ منهم ما يفيد حياتنا ولا يعكر صفو عقيدتنا الإسلامية .

ومتى كانت هناك صداقة بين القوة الظالمة والقوة المقهورة حتى يكون لهم الولاء على أمتنا وإصلاح ما فسد لدينا ؟؟

إن مسئولية الإصلاح والعودة بالبشرية إلى الإسلام هى مسئولية الإسلام وحده، وتبقى هذه المسئولية من وظيفة العلماء ورثة الأنبياء ، والدعاه المصلحين بالدرجة الأولى .. فالمسئولية إسلامية وليست غير ذلك .

وإنه لا يختلف أحد أن الأزهر الشريف بمصر ، هذا الصرح العظيم والمتين قد فاق رسوخ الأهرامات بتخريجه آلاف العلماء ، ونشر تعاليم الدين الحنيف إلى جميع أنحاء العالم ، ولكنه واجب على شعوب الأمة وأبنائها أن تشارك المسئولية لحماية أمتها من أعدائها بكل السبل .

لقد ابتلى الإسلام على مر العصور والدهور بالأعداء الذين أحاطوا به من كل جانب وبالمؤامرات التي دبرت ضده لتفرقة كلمته وتشتيت شمله من يوم الردة إلى أيام الإنقسام والحروب ، وإلى نكبة هولاكو والمغول ، إلى هجمات الصليبين ، وإلى إلغاء الخلافة الإسلامية وتفريق كلمة المسلمين وجعلهم أمماً وشعوباً مختلفة بعد أن كانوا تحت لواء الخلافة الواحدة فى الأمة الواحدة .

الإسلام اليوم يواجه حرباً ضارية يخطط لها ، وتصرف الأموال على خططها .. والمسلمون فى أسوأ حالهم وقد صارت الأمة فى حالة من الضعف والانهزامية والتبعية لأعداء هذا الدين وتفرقت كلمة المسلمين .

العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة مستهدف من قوى البشر والظلم والكفر ،، فالدماء تنزف كل يوم فى أبناء هذه الأمة بسلاح أعدائها صنعوه لندمر به أنفسنا ..

رأينا لبنان وقد أكلتها الحرب الأهلية المدمرة وإغتيال أحد قادتها ،، وشاهدنا العراق وهى تنزف من أبنائها صفوة الرجال ، وتستعمر وتلطخ شوارعها بالدماء .. وهذا شعب فلسطين المشرد نكتب فيه شعراً والأقصى أسيراً ينادى من يحرره من أيدى المغتصبين، وإسرائيل تسقط الضحايا فى كل يوم .. ورأينا الأعداء يمتصون دماء الشعوب المسلمة وهم الآن يتربصون بسوريا وإيران ويتدخلون فى شئون السودان ويعطون الأوامر لتنفيذ مآربهم فى ستار مجلس الأمن ، ولا ندرى ماذا سيكون غداً وأى شعب جديد أو وطن جديد مسلم تدور عليه دائرته ؟

إن قلمي يرتعش فى يدى وكأنه عاجز عن تفسير المعانى والأفكار التى تدور برأسي ، والغيرة التي تسكن قلبى بينما تعود ذاكرتي لقراءات كتبها المختصون والمؤرخون تذكرني برجل من رجال الأمة وهو عقبة بن نافع الذى وقف على شاطئ المحيط الأطلسى وهو يقول : اللهم رب محمد لولا هذا البحر لفتحت الدنيا فى سبيل إعلاء كلمتك ـ اللهم فاشهد [١] .. وعمر بن الخطاب لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه[٢] ، وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها ، فطاف سبعاً ثم صلى ركعتين عند المقام ثم قال : شاهت الوجوه [٣]، ، من أراد أن تثكله [٤] أمه ، أو يؤتم ولده وترمل زوجته فليتبعنى وراء هذا الوادى ... وهو نفسه عمر الذى كان يحارب الإسلام والمسلمين .

رجال لهم بطولات وتضحيات ، ومنهم فى الإسلام كثير ممن تربوا على الإيمان والإسلام ، وتخرجوا فى مساجد المدينة ومكة والأقصى وقرطبة والأزهر والأموى ، وهم أصحاب فضل فى العلم والمعرفة ونشر الهداية والتوحيد والعدل والمساواة فى مدرسة محمد ﷺ .

لابد للعرب من الوحدة حتى تعود الأمة لمجدها ، وتصد أعدائها ، ويكتمل إقتصادها .. فلا تعيش دولة منها تحت رحمة المساعدات .. ويعود للإسلام مجده وللمسلمين قوتهم وعزتهم .

---

(١) الجمعه والعيدين لعلماء الأزهر ٣٦٦ ، حتى يعلم الشباب للشيخ عبدالله علوان بجامعة الملك عبدالعزيز .

(٢) أى ألقاها على منكبه .

(٣) أى قبحت .

(٤) أى تفقده .

س٣ – عظيم القبط يشيد بقوة المسلمين فى عزهم :

فى دعوة رسول الله ﷺ لملوك الدنيا يدعوهم إلى الإسلام كتب عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر مع حاطب بن أبى بلتعة ، فلما دخل على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى .

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات] .

فأنتقم به ثم إنتقم منه .. فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك ، فقال: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه ، فقال له حاطب : ندعوك إلى الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى .. ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبى أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى ،، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به فقال المقوقس : إنى نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبأ والإخبار بالنجوى [١] ، قال « وسأنظر» وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله فى حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب العربية فكتب إلى رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعوا إليه وقد علمت أن نبياً يأتى وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وبثياب ، وأهديت إليك بغله لتركبها والسلام عليك « ولم يسلم » ، وقد أشرنا إلى هذه النهاية من المقابلة فى نهاية الفقرة الثانية من هذا الجزء فى دعوة النبي ﷺ أهل الكتاب لدين الله فإحدى الجاريتين ماريه التى تسرى بها عليه الصلاة والسلام وجاء منها بولده إبراهيم، والأخرى سيرين أعطاها لحسان بن ثابت ﷺ ، والبغلة « دلدل »بقيت إلى زمن معاوية ﷺ ..

روى أن المقوقس أمير مصر من جهة قيصر وكان عظيم القبط أرسل بعثة إلى المسلمين ليخبروه عن حالتهم الدينية فلما رجعوا إليه قال:كيف رأيتموهم؟ قالوا رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم رغبة فى الدنيا ، أميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ،

---

(١) الخبأ : ما خفى فى غيره ، وإخراجه : إظهاره ، والنجوى : السر .

وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم .... وهنا قال المقوقس والذى يحلف به :

لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ... هذا وصف المسلمين أيام كانوا فى عزة الإسلام عاملين به واقفين عند حدوده فسادوا العالم برسائلهم .. فماذا نحن اليوم ؟! ..... ما حدث أن المسلمين تخاذلوا عن واجبهم وأعرضوا عن تعاليم دينهم وأوامر ربهم إلا من رحم الله .. فتغلغلت الفتن فى جوانب الأمة ، وانتصرت مؤامرات عدوهم .

وقد أوضح النبي ﷺ لأمته نتائج إنصرافها عن دينها إلى أهواء الدنيا والتعلق بها فقال عليه الصلاة والسلام : يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن، قال قائل : يا رسول الله وما الوهن قال : حب الدنيا وكراهية الموت[1] .

٤ ـ شاء الأعداء أم أبوا فالحق ظافر منصور .

ولو تأملنا قليلاً بإمعان فى كتاب الله وعدنا معه إلى بداية نزولة على سيدنا رسول الله ﷺ لوجدنا أن أعداء هذا الدين لا يملون من حربهم لهذا الدين الذى يفضح أساليبهم الفكرية والثقافية والإقتصادية وغيرها من تخطيط اليهود عليهم لعنة الله ، وما تمتلئ قلوبهم به من الحقد على المسلمين ، ويسعون بكل سبل المكر والخديعة لأذية أبناء هذا الدين .. ولكن القرآن إكتسح كل خططهم وأفكارهم وإفسادهم .. وإلى يوم القيامة اليهود هم اليهود ! لقد أصبحوا أقوى نفوذاً وأشد تنظيماً من تلك الفترة التى نزل القرآن فيها يكشف هويتهم، ويحذر الأمة من خطرهم ...إنهم ليعتقدون أنهم شعب الله المختار ، وأن الله إختارهم لسيادة العالم .. فأباحوا لأنفسهم كل الجرائم والمنكرات لتحقيق إعتقادهم ، وإنهم ليعلمون الحق بهديه وعدله من رسالة محمد ﷺ ودعوته، ولكنهم إنصرفوا عنه وشوهوه ، وناصروا الباطل وأيدوه .. ولهم مخططات ومطامع فى بلاد

---

(١) أخرجه أبوداود ٤٢٩٧ ـ وابن عساكر عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ ـ ورواه أبو داود والبيهقى فى دلائل النبوة .

(٢) يعني القسطنطينية (والحديث رواه الإمام أحمد بإسناده ٢/١٧٦ والحاكم ٤/٤٢٢ وصححه والدارمي ١/١٢٦ والألبانى فى السلسلة الصحيحة .

المسلمين ،، يحلمون بدولة عاصمتها القدس تمتد حتى الغرب ، ثم تكون روما عاصمتهم فى النهاية ، ولكنها نهايتهم بإذن الله ، وروما ستصدق فيها نبؤة محمد ﷺ بفتحها على أيد المسلمين .

فقد ورد فى حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : بينما نحن حول رسول ﷺ إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً « القسطنطينية أو رومية »؟ فقال عليه الصلاة والسلام : مدينة هرقل تفتح أولاً [٢] ، وقد فتحت عام ١٤٥٣ على يد القائد محمد الفاتح ، وأصبح صاحب الكلمة الأولى فى أوربا وأفريقيا وهابه الأوربيون حتى سموه بالسيد العظيم ، وليس هذا الفتح الأكبر المقصود بالحديث .. حيث تسقط القسطنطينية على أيدى المسلمين بدون قتال ، سلاحهم التكبير والتهليل ، وستفتح روما وغيرها بإذن الله [١] .

فلينس اليهود أحلامهم وليرحلوا عنا وعن أرضنا المغتصبة فالنصر والله آت لنا لا شك فيه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ [محمد] .

وفى الحديث الذى رواه الأمام أحمد قال رسول الله ﷺ : ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار،ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله فى هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٢٢ ﴾ [يوسف] .

الباطل لا يدوم .. والحق ظافر منصور لا شك فيه .. والمستقبل للإسلام شاء الأعداء أم أبوا مهما كانت الصعوبات والمعوقات .

٥ ـ صورة أعداء الدين فى كتاب الله المبين .

وقد وضع القرآن الكريم أمامنا الصورة الكاملة وبين لنا أن اليهود هم أشد الناس بغضاً وعداوة للمؤمنين ، وعداوتهم لدين الإسلام ظاهرة ومكشوفة، مع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل قال تعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢ ﴾ [المائدة].

---

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان (محمد السبيعى) .

فإنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ، وكيف يكون لهم عهد وذمة وقد نقضوا كل العهود واعتدوا على المؤمنين وعلى دينهم الإسلام الذى رفضوه وأعرضوا عنه وأستبدلوا به متاع الدنيا ـ وباعوا حجج الله بالثمن القليل الخسيس، فاشتروا الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى وجحدوا الحق على علم منهم ومعرفة، فتجاوزوا الحلال إلى الحرام بغدرهم وجحودهم، وقد علم الله ما يظهرون وما يخفون، وما يدور بخاطرهم من البغض والعداوة، لا يرقبون عهداً ولا ذمة ولا قرابة ولا ميثاقا ـ وبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين مكرهم وحذرهم من شرهم فقال سبحانه تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة].

وأهل الكتاب والمشركون كلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغينة، يكرهون لهم الخير، ويشككوهم فى كل أمر قال سبحانه وتعالى:

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة].

فإن عداوتهم للمؤمنين عداوة كبيرة إلى درجة يتمنون فيها زوال نعمة الله حسداً منهم للمؤمنين وتسفيهاً للحق المبين، وتمنوا أن يردوا المسلمين عن دينهم فيستوون فى الكفر، لذلك أمرنا الله تبارك وتعالى أن لا نتخذ منهم أنصاراً ولا أعواناً، ولا ولياً يلى شئوننا إلا من حافظ على عهده وميثاقه مع المؤمنين فهؤلاء لهم الأمان.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء].

ذلك حتى يحسنوا إليكم بإظهار المودة والإسلام بالإنضمام إلى جماعة المسلمين فإن تولوا وإنصرفوا فخذوهم واقتلوهم فى أى مكان، ولا تتخذوا منهم ولياً لشئونكم ولا

نصيراً تستعينون به إلا من استثناه الله فى الذين بينهم وبين المؤمنين عهد وميثاق .

لقد اختاروا الضلالة على الهدى فتركوا أحكام دينهم وحرفوا كتابهم وإنهم لدائبون بكيدهم وما تحمله قلوبهم من الغل والعداوة على إضلال الفئة المؤمنة عن سبيل الحق .

قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النساء] .

إنهم فى ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم فى ظنون كاذبة ليست من هدى الله ، ولا تستند إلى حق .. كلها ضلال ، وهذا حال أكثر من فى الأرض .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الصافات].

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف] .

وقال جل فى علاه : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام] .

فيحسدون الناس على ما أنعم الله عليهم بكتابه الكريم ورسوله العظيم ﷺ.. وقد روى أن شاس بن قيص اليهودى ـ وكان شديد الحسد والعداوة للمؤمنين مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج يتحدثون فى مجلسه ، فغاظه ما رأى من إجتماعهم وألفتهم بعد ما كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ـ فأمر فتى من اليهود أن يجلس بينهم ويذكرهم بيوم « بعاث » « وكان يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج » وينشدهم بعض الأشعار فيه ففعل .. فتكلم القوم وتنازعوا وتفاخروا ثم تداعوا إلى السلاح .. هم اليهود كما هم لا يملون من الحرب على المسلمين ويدسون بينهم من يفتت جمعهم ويفرق شملهم ويمزق وحدتهم ..

وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاءهم فقال : يامعشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام ؟ فعرف القوم أنها نزعة شيطانية فألقوا السلاح [1]،فنزلت الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

إنهم يتمنون أن ينسلخ المسلمون عن دينهم وكتاب ربهم ، والله سبحانه وتعالى يحذرنا منهم ومن مكرهم فيقول سبحانه :

---

(١) م الطبري ١/ ١١٦ .

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

فإنهم يبذلون كل الجهود بكل الجحود لزعزعة عقيدة المسلمين والمؤمنين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة].

وأنظر في كتاب الله تجد أن الله سبحانه وتعالى في سورة الممتحنة نهانا عن موالاة أعداء الله ممن غضب الله عليهم سواء من المشركين أو من اليهود.

في بداية السورة نداء من الله سبحانه وتعالى يدعوا المؤمنين ويبصرهم بحقائق موقفهم، ويحذرهم حبائل أعدائهم، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم فإنهم منه وإليه يعاد بهم من يعاديه، وإنهم لا يجوز لهم أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة].

وفي ختام السورة بين الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء اليهود الذين غضب الله عليهم قد يئسوا من ثواب الله لهم في الآخرة كما يئس الذين من قبلهم من ثواب الله وكرامته حين كذبوا بالبعث والنشور ومن الموتى أصحاب القبور، فقد إنقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدون ـ قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة].

وفي مثل هذه الآيات في كتاب الله الكثير والكثير نذكر منها:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء].

فشرع الله بذلك عداوتهم ونهى أن يتخذ المؤمنون منهم أولياء وأصدقاء وأخلاء وأنّ الذين يردون إرادة الله ويتحدون الخالق سبحانه وتعالى، وقد جحدوا بوحدانيته ليسقطوا قدره، ويصدون عن سبيله ... أعلمنا الله أنهم لن يطفئوا نور الله سبحانه وأنهم مساقون

إلى جهنم قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال].

وهذا أردناه تذكيراً بأعداء البشرية، أعداء الدين الذين يبذلون الكثير من أوقاتهم وأموالهم في تشويه صورة هذا الدين العظيم، وإشعال الفتن بين أبناء المسلمين ... وهم لا يملون ولا يكلون !!

الأمر الثالث ـ النفس البشرية بين الحق الثابت والهوى المتقلب .

١ ـ الحق واحد لا يتعدد :

أمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الناس بأن الذي جاء به من عند الله هو الحق الذي يحمل الهدى والبيان، لا مرية فيه، ولا شك فيه، ومن اهتدى بهذا الحق وسلك سبيله واستقام عليه فإنما يعود النفع عليه، وقد يغني الخير لنفسه ،، ومن ضل واعوج عنه وزاغ فما جنى إلا على نفسه ! وعليه وبال ضلاله .

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس].

وما رسول الله ﷺ موكل بالناس حتى يكونوا مؤمنين وإنما هو عليه الصلاة والسلام نذير .. هذا الحق بقوته وصدقه وثباته تقوم به السماوات والأرض، وتجري عليه سنن الكون، فلا ينحرف إلى الهوى أو يميل عن صراط الله المستقيم : ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون].

ولو خضع هذا الكون لرغبات الناس وأهوائهم لفسدت كل القيم والمبادئ والأخلاق والأوضاع، فتسير حركة الحياة حسب حالة الإنسان إتفاقاً أو إختلافاً مع الحب والكراهية للحق ...

ولو أجاب الله الناس إلى ما في نفوسهم من الهوى واختلاف الآراء والأهواء لفسدت البلاد وفسد العباد .

قال تعالى : ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون].

الحق واحد ثابت ومستقر، قواعده قوية وسليمة على فطرة الله، لذلك فهو دائم التصادم مع أهواء الناس يقف في طريق شهواتهم وميلهم إلى الباطل والأهواء فيكرهونه

ويحاربونه ، وينقادوا إلى الباطل ويعظموه . قال سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الزُّخرُف].

وقد جعل الله الحق ـ الحق إسماً من أسمائه سبحانه ، فهو الحق، وهو الحي الباقي الذي لا يزول ، نزل كتابه بالحق ، وبالحق أرسل رسوله بالهدى ودين الحق مبشراً للطائعين ونذيراً للعاصين .

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء] .

وبيد الله سبحانه وتعالى الهدى والضلال فليعمل كلُ ما يشاء ـ اعملوا ما شئتم ! فإما الإيمان ولن يضيع الله ثوابه للمؤمنين الطائعين ، وإما الكفر ، وقد أعد الله لأهله ناراً تشوي وجوه الكافرين .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] .

وذلك ليس للتخيير بين الكفر والإيمان وإنما الوعيد والتهديد .

قال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سبأ] .

.. وزهق باطلهم واضمحل وهلك ، ولابد للحق من قهر لمن عاداه وناوأه ـ قال سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] .

البينات واضحة والدلائل قوية والكتاب به الأحكام والشرائع والميزان للعدل في المعاملات ، والحديد فيه القوة والسلاح للقاء العدو ، وعِلم الله أزلي يظهره سبحانه

لخلقه،وفى الحديث «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[١] أى ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع[٢].

وإن الحق فى النهاية ظافر منصور ، والباطل هش سريع العطب كالزبد يطفو على الماء ، ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء ، ولا ثبات للباطل مع الحق ولا بقاء ، تدفع الرياح بالباطل ويقذف به الماء فيتلاشى ، وما ينفع الناس يبقى لنفع الناس .

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد] .

٢ ـ الأهواء والباطل شريعة الجهل والإنحراف .

والهوى باطل متقلب متشعب المسالك ، فذلك الذى لا يتداركه الله برحمة الهدى .. والنفس تميل إلى ما تشتهيه فيغلب عليها الهوى ، والهوى لا يركن إلى الحق ، ولا ستريح له .. فتذهب به النفس إلى الضلال والبدع .

وفى المسند من حديث أنس ﷺ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاث مهلكات وثلاث منجيات ـ فالمهلكات شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ـ والمنجيات تقوى الله فى السر والعلانية ، والعدل فى الغضب والرضى ، والقصد فى الفقر والغنى .. وكان من دعاء سيدنا رسول الله ﷺ أسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا .

يقول الإمام بن القيم فى كتابه روضة المحبين :

إن متبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ، ولا يكون إماماً ولا متبوعاً فإن الله تعالى قال لخليله إبراهيم عليه السلام :

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة] .

وكل من اتبع هواه فهو ظالم لا ريب فيه لقول الله تعالى :

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم] .

وليس لمن أضله الله ناصر ينصره فينقذه من الضلال ، اللهم إلا من سدد وجهه نحو الإسلام وما جاء به من الحق المبين ، ولا تغيير لدين الله المتين ، فالهوى لا ضابط له ولا

---

(١) نقلا من ابن كثير ٣/ ٥٩ (والتعليق له أيضا).

(٢) من تفسير بن كثير ٣/ ٥٩ .

مقياس ، إنما هو شهوة النفس المتقلبة ونزوتها المضطربة ومطامعها التي لا تستند إلى حق،وذلك هو الضلال الذى لا يرجى معه هدى.

أما العقيدة الواحدة فهى ثابتة لا تتفرق معها السبل إلى شيع وأحزاب ، وأهواء ونزوات ... والقلوب المنحرفة تفقد كل الدلائل والحجج وإن الله الذى خلقها هو الذى أنزل إليها هذا الدين بالهدى والحق ليحكمها ويقومها من الإنحراف والميل إلى الأهواء ..

فإذا انحرفت النفوس عن فطرة الله لم يردها إليها إلا هذا الدين القيم الذى يجمع المؤمنين على طريق ثابت يتحرك بالحق وتحميه عقيدة الحق ... وليس لأحد من قدرة الله منقذ ولا مجير لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فسدد وجهك للدين الذى هداك الله إليه ، وفطرة الله التى فطر الناس عليها على معرفته وطاعته وتوحيده .. وأنه لا إله غيره .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] .

ووجه الله رسوله ﷺ أن يهمل الذين يغفلون عن ذكر الله وقد شغلتهم قلوبهم بأهوائهم فاتبعوها ـ وآثروها على طاعته سبحانه ، وشُغلوا عن الدين بالدنيا .. وصارت أعمالهم وأفعالهم تفريطاً فى حق الله ، وضياعاً وبعداً عن فطرة الله .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] .

وإن الذين تركوا الحق الثابت وفارقوه ومالوا عنه إلى الهوى قد خذلهم الله عن طريق الصواب وتقاذفتهم الأهواء ومزقتهم الحيرة وسيرتهم هواجس الشياطين .. فمادت الأرض من تحتهم ، وفقدوا الأمن والطمأنينة والقرار والثبات والإستقرار ، فلا ثبات لهم ولا يستقر أمرهم على حال ولا يقر لهم من بعد الحق قرار ، وهم فى أمر مختلط مريج ملتبس لا يعرفون فيه الحق من الباطل .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ق] .

وهذا حال كل من خرج عن الحق يعيش فى باطل مضطرب ، فإذا مال عن الحق عبد ما يهواه ويراه مريحاً لنفسه .. وذلك لا يورث إلا الجهل الذى يمنع صاحبه من الحقيقة ، ويصده عن سبيل الرشاد والفلاح فيتخذ معبوده هواه ، ويعبد الشيئ الذى يهواه ، فإذا كان على علم بالحق غير جاهل به فهو أشد قبحاً وشناعه ممن يضل عن جهل ، وقد أضله

الله وخذله، وطبع على سمعه فلا يعتبر بآيات الله ولا يعقل ما فيها من النور والبيان وطبع الله على قلبه فلا يعقل به شيئا ولا يعى به حقا .

قال المولى تبارك وتعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية] .

ورسول الله ﷺ ليس حفيظاً أو وكيلاً على أفعال الجاهلية ، فإنهم يسمعون ولا يعون .. ومن ثم فإنهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، وما هم إلا كالأنعام التى لا تعقل ما يقال لها ، بل أضل طريقاً منها لعدم طاعتهم لربهم وشكرهم نعم الله عليهم وإتباعهم الحق ، والبعد عن الهوى .

والضال من خذله الله فلم يوفقه لطاعته ، وهو الخاسر الهالك ـ إنهم لم يستفيدوا من قلوبهم وجوارحهم التى جعلها الله لهم سبباً للهداية فصاروا كالبهائم بل شر منها ـ والبهائم تهتدى لمراعيها وتنقاد لراعيها .

قال سبحانه وتعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف] .

لقد عطلوا جوارحهم وقلوبهم عن الحق وإتباعه وعاشوا غافلين لا يتدبرون .. والعلم الذى لا يعصم صاحبه من الأهواء والشهوات والرغبات يلزم الشيطان صاحبه لا يفارقه – يغويه ويدفع به إلى الباطل والضلال .

وحين تخضع النفس لهواها وتحكمها شهواتها فقد جعلت منه إلهاً يعبد ويطاع ، فذلك الذى لا يقبل الهدى ، ولا يتوكل رسول الله ﷺ بأمره ، لأن هؤلاء تجاهلوا الحقائق واتخذوا من أهوائهم آلهة مطاعة كما ذكر فى الآيات كالأنعام لا تدرك أو تتدبر ، والبهيمة تؤدى وظائفها التى أودعها الله آداءاً كاملاً ، بينما يهمل الإنسان نفسه فلا ينتفع .

قال سبحانه وتعالى : ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان] .

وكذلك يضل الله من يبغى الضلال لنفسه ويعرض عن دلائل الهدى وموجبات الإيمان ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها فلم يوفق لإصابة الحق وأقام ميزان حياته على جهل ـ لا يقيم للحق وزنا .

* فجهل بحقوق الشريعة ، عندما يشرع الإنسان لنفسه دون شرع الله .. فحين يشرع لنفسه فأول ما يفكر فى تشريعه حماية نفسه وحماية مصالحه ، وحين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة ، إنما هى العدالة المطلقة .

قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور] .

* وجهل بحقوق العبودية .. عندما يرضى العبد بما يقدمه من الطاعة ، ورضى العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه ، وجهله بحقوق العبودية ،، والرضا بالطاعة من حماقات النفس وباطل الشيطان المضل بالهوى . قال جل وعلا :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « سددوا وقاربوا وأعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله ـ قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » .

* وجهل بحقوق التوحيد .. عندما يتخذ الناس من دون الله أولياء وشفعاء يتوجهون إليهم فى الملمات ويتضرعون إليهم فى الشدائد ، وعندما يستسلم الناس لأعداء الدين وهم يحدثون بينهم الشقاق والإنقسام إلى طوائف تتشاجر وتتراشق بالسباب ، وتترامى بالتهم ويكيد بعضها لبعض ـ فى الوقت الذى يتمزق فيه شمل المسلمين فى أنحاء الدنيا ما بين قتل وتشريد وإهانة فى حق الإسلام والمسلمين ، وما يهدد الباقين منهم فى نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم « ويل للعرب من شر قد اقترب » [1] .. والكل يتنصل من المسئولية ، ويقول نفسى نفسى .. فصار رباط المسلمين كما ذكرنا قبل لا يتجاوز انتماؤهم للإسلام بالبطاقات الشخصية وشهادات الميلاد ـ وصار المنافق هو السيد ، والمستسلم لعبودية البشر هو القائد ، والمتخلف عن حدود الله هو الذى ينال المجد والشهرة ويعيش فى الأمن والأمان .. لقد تفرق الناس فى الحق وتجمعوا على الباطل ، وانصرفوا عن دينهم ، وعن كتاب ربهم .. وكأن الدنيا خلقت لنعمر فيها إلى الأبد .. وكأن الموت لم يكتب علينا .

ولا فرق فى أن يكون المعبود حجراً أو صنماً أو عجلاً من ذهب ، أو مذهب من المذاهب ، أو قبر ولى من الأولياء ، أو هوى متبع ، فليس هناك هوى متبع يهدى إلى حق مهما كانت الراحة ومهما كان الإطمئنان .. هناك إله واحد هو الذى يستحق العبادة

---

(١) من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش (متفق عليه) .

والعبودية والطاعة والتشريع سبحانه وتعالى لا شريك له ،، هو الله الخالق الرازق المنعم.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس].

وكم من الباطل المتقلب المسالك ، والذى لا يركن إلى الحق وتذهب به النفس إلى الضلال فتعبد الأصنام المعبودة بالهوى .. أصنام المال الذى يحبونه حباً جما ، ويكنزونه فلا يصل إلى مستحقيه ،، وأصنام الغرور التى تورث الناس الهوان والاستعباد والسخرية .. كله هباء منثورا وزبد يطرحه الشاطئ فى نهاية الأمر فتدفعه الرياح ويتلاشى ثوابه .

وبالحق تكون الإستقامة والسلامة والقدوة والإتباع وحفظ الكرامة، ومنهج الله وشريعته لا تسلك إلا طريق الحق، وما عداها فهو الهوى والباطل .. الجهل الذى لا يقيم للحق وزنا ويزيد الجاهلين جهلاً على جهلهم، ولم يدفعوا عن أحد شيئاً من عقاب الله ، والظالمون بعضهم أنصار وأعوان بعض على أهل الإيمان .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية] .

سبحانه وتعالى الولي لمن اتقاه وأرضاه .. ينصره ويدفع عنه كل من أراده بسوء .

وطاعة الله حق وأمر ، وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة الله ولن يرتفع الباطل بالأهواء إلا إذا غفل الناس عن الحق الذى شرعه الله الحق .

وحين تنفلت النفس من ثبات فطرتها وتخضع لهواها فلا قيمة عندها للحق الذى يمثل الهداية والطاعة ، ومن سلم نفسه لهواه فكان هو دينه ومذهبه ومنهجه .. فقد كتب الله عليه الشقاء والضلال ، وكان أسوأ حالاً من الأنعام .

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان] .

ويجرى قدر الله بهداية من يجاهد الهوى كما جرى قدره بإختلال من زاغ عن الحق واتبع هواه وكان أمره فرطا .

والذين أصابهم توفيق الله والإهتداء إلى طريقه فدافعوا عن دينهم الحق مبتغين نصرته قال المولى سبحانه وتعالى فيهم .

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت] .

وإن الله لا يزيل ما بقوم من العافية والنعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم بظلم بعضهم بعضاً وإعتداء بعضهم على بعض فتحل بهم عقوبة الله .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم

مَن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد] .

وإذا أراد الله بقوم خزياً وهلاكاً فلا يقدر على رد ذلك عنهم أحد غير الله ، وليس لهم من يلي أمرهم غيره سبحانه وتعالى ..

والذين تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة والشهوات وخالفوا الحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم ـ ما حملهم على ذلك إلا الظلم لأنفسهم وللحق وللحقيقة .. ولو أنهم أخلصوا لعقيدتهم واتبعوا منهجهم ما تفرقوا... ومن رحمة الله أنه سبحانه وتعالى يمهلهم حتى يعودوا إليه ، ولو شاء الله لعجل لهم العذاب ولكنها حكمة أرادها الله.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى] .

ذلك لأن الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ليسوا على يقين من أمرهم وإنما هم مقلدون لآبائهم .

٣ ـ العقول البشرية لا تبلغ الكمال في التفكير ، والنفوس لا تسلم من الضعف والتقصير .

والعقول البشرية مهما بلغت من الإدراك قد تميل عن الحق والرشد والهوى،، والنفوس لا تسلم من وسوسة الشيطان .. فتتحول فجأة من الحق إلى الباطل ، ومن الإستقامة إلى الإنحراف ومن السنة إلى البدعة ،، ولهذا سمى أهل البدع بأهل الأهواء .

النفس تتعرض للحظات الضعف البشرية مهما بلغ كمالها وقوتها ، وإن لم تحاسب ذاتها أولاً بأول قد يفلت منها زمام الحق تحت أى مؤثرات هادمة .. ولما للشيطان عليها من سلطة الإغواء ... والرسول ﷺ يقول إن الشيطان يجرى من بنى أدم مجرى الدم فى العروق[1] وروى عن بن حسين أن صفيه بنت حيى بن أخطب أخبرته أن النبي ﷺ كان معتكفاً فى المسجد . قالت:فأتيته فتحدثت عنده ، فلما أمسيت إنصرفت فقام يمشى معى ، فمر رجلان من الأنصار فسلما ثم إنصرفا ، فناداهما وقال : إنها صفيه بنت حيى ، فقالا : يا رسول الله ما نظن بك إلا خيرا ، فقال : إن الشيطان يجرى من بن أدم مجرى الدم من الجسد ، وإنى خشيت أن يدخل عليكما[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) متفق عليه .

وإنه لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات التى يتعرض لها الإنسان فهو سبحانه المعين على الطاعة والمعين على ترك المعصية .

والإسلام يبين فى كل حالة من الحالات موقفاً من المواقف يتخذه العبد عظة وعبرة ودروساً يهتدى بها إلى إخلاصه فى إتباع الحق والتخلص من الهوى ومن كل الأهواء ..

والمطابقة بين العقيدة والسلوك ليس بالأمر اليسير إنه أمر صعب ويحتاج منا إلى جهاد، ولكنا أمرنا أن نأخذ بالأسباب ونجد ونجتهد كل الإجتهاد ولكلٍّ أجر بمشيئة الله .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف] .

فنحن بشر .. وكلما تعرضنا إلى لحظة ضعف فلنأخذ بأسباب طرحها بعيداً عن أنفسنا بجهاد النفس حينما تضعف وتميل إلى الهوى .. وإنه مهما حاسب الإنسان نفسه لم تسلم عن المعصية والتقصير فى حق الله تعالى .. بذلك لا ينبغى أن يهملها الإنسان حتى لا يتعسر عليه فطامها ، فإن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر .. وقد أمرنا بتزكيتها وتقويمها وقيدها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها .. فأنت إن أهملتها جمحت وشردت ، وإن لازمتها بالتوبيخ والعتاب كانت هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها .. والنفوس الدنيئة تحوم حول الظلمات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار بعكس النفوس الشريفة التى لا ترضى من الأشياء إلا أعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة .. هذه النفس الأمارة مذمومة تأمر بكل سوء .. وما تخلص أحد من شرها إلا بتوفيق الله كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز .

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف].

ويضرب لنا الله الأمثال فى كل مجال ... فهذا مثل أوردته السيرة النبوية وتناولته تفاسير أهل العلم لرجل من المؤمنين المقربين تعرضت نفسه لهذه اللحظات .. لحظات الضعف البشرية .

أمر رسول الله ﷺ بالتجهيز لغزوة ، وقال «اللهم غم عليهم خبرنا» ـ ذلك بعد أن نقض أهل قريش عهودهم مع رسول الله ﷺ عام الحديبية [1] .. وأخبر رسول الله ﷺ جماعة من أصحابه بوجهته ، وكان منهم حاطب بن أبي بلتعه والذى ذكر أسمه قبل عندما

---

(١) التفصيلات لمن أراد بالبداية والنهاية لابن كثير (٢/٥٩٥ : ٦١٠) .

حمل كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية وزعيم القبط ، وهو أيضاً رجل من المقربين إلى رسول الله ﷺ قد شهد بدرا ، وكان من المهاجرين ـ وقد ترك أولاده وماله بمكة .. فعمد حاطب فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة مشركة إلى أهل مكة يعلمهم بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يدا .

فأطلع الله تعالى رسوله على ذلك إستجابة لدعائه وإمضاءاً لقدره فى فتح مكة، فبعث فى آثر المرأة فأخذ الكتاب منها .

يقول علي بن أبي طالب ﷺ : بعثنى رسول الله ﷺ وأبى مرثد والزبير بن العوام «وفى رواية أخرى أنهم على والزبير والمقداد »وكلنا فارس .. وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعه إلى المشركين ـ فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ ... فقلنا : الكتاب ؟ فقالت ما معى كتاب ، فأنحناها فالتمسنا فلم نرى كتاباً ـ فقلنا ما كذب رسول الله ﷺ ـ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ـ فلما رأت الجد أهوت إلى حجرتها وهى محتجره بكساء فأخرجته ، فانطلقنا به إلى رسول الله ﷺ .

فقال عمر يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضربن عنقه ، فقال النبي ﷺ : ما حملك على ما صنعت ؟ قال حاطب : والله ما بى إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ أردت أن تكون لى عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله فقال :«صدق لا تقول إلا خيرا» فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلأضرب عنقه فقال النبي ﷺ أليس من أهل بدر ؟ فقال لعل الله أطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو قد غفرت لكم ، فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم [1] فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١].

---

(١) رواه البخاري فى المغازي - ورواه مسلم فى صحيحه فى حديث حصين بن عبد الرحمن عن سعد بن عبيده عن أبي عبد الرحمن السلمى عن على بن أبي طالب ﷺ .

ويقف الإنسان أمام تقدير الله ، وهو أن حاطب من القلة التى تعهد إليها رسول الله ﷺ بسر الحملة ، وأن تدركه لحظة الضعف البشرية وهو من القلة المختارة ، ثم يجرى قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين .

ثم هذا عمر والشهامة تأخذه والغيرة تقتله يستأذن رسول الله ﷺ فى أن يضرب عنق حاطب يقول فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ـ فذلك إيمان حاد وحاسم وجازم فى شدة عمر ﷺ ـ ثم نرى رسول الله ﷺ وعظمته ، لا يعجل حتى يسأل ـ ما حملك على ما صنعت ؟ فى سعة صدر وعطف .. قد علم رسول الله ﷺ لحظة الضعف الطارئة فى نفس صاحبه وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق، ثم يكف أصحابه عنه « صدق لا تقول إلا خيرا » ليعينه وينهض من عثرته فلا يطارده بها ولا يدع أحد يطارده .

ومن ثم فإن الله تبارك وتعالى وهو الذى خلق النفوس يعلم أنها ليست كلها مما يتأثر ويستجيب ، ومهما كانت درجة الإيمان فإن النفس البشرية معرضة للضعف وتحكم بالإلف والعادة .. وعلينا تذكيرها أولاً بأول والصبر عليها .. تلك اللحظة وجب دفعها وإعادتها إلى طبيعتها بدوام طاعة الله ودوام ذكر الله والتحصن بالدعاء ـ قال بن عباس رضي الله عنهما : وكان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية :

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس] .

« قال اللهم أت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » .. فإن الشر كامن فى النفس وهو يوجب سيئات الأعمال ، فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك ،، وإن وفقه وأعانه ونجاه كان بفضل الله ـ فنسأل الله أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ وهل الدين إلا الحب فى الله والبغض فى الله ؟ [1] .

وروى الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة الله لأنه ﷺ المبلغ عن الله .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح] .

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾ [التوبة] .

---

(١) رواه بن أبي حاتم عن أبيه عن بن الطنافسى عن يحى عن عروة عن عائشة رضي الله عنها (بن كثير ١ / ٣٥٨)

فاستجيبوا لربكم وأطيعوه وأرضوه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[الأنفال:٢٤].

وفى الصحيحين عن الأعمش عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ومن عصى الأمير فقد عصاني [1] .

وما على رسول الله ﷺ إلا البلاغ ،، وقد خاب وخسر من تولى وأعرض عن ذكر ربه وأصر على الباطل وعلى إتباع الهوى واستكبر عن الحق ـ والله لا يحب الجاحدين للإيمان العاصين لأمر الله ورسوله .

ويتطلب من المسلم أن يقوم على الحق ليدفع الباطل ، وأن ينهض بالخير ليقضى على الشر ، وأن يتوجه بنشاطه ونفسه وحياته كلها لله .. فالنفس مرة تكون أمارة ومرة تكون لوامة والثالثة مطمئنة ... وبالنفس الأمارة واللوامة امتحن الله سبحانه وتعالى الإنسان ، وبالنفس المطمئنة أكرمه الله ونجاه ... ومخالفة الهوى تورث العبد قوة فى بدنه وقلبه ولسانه ،، ودوام الطاعة والذكر لله يحصن الإنسان من شيطان نفسه ويهديه إلى الحق فلا يميل عنه ،، والذين هم على الحق قائمون وبه يعدلون ، وعلى طاعة ربهم يحافظون ، لن يخذلهم الله أبداً عن الإستقامة والسلامة ،، وليس من باب يجد العبد فيه نفسه تقيه ومستريحة ومطمئنة إلا باب الحق سبحانه يهدى إليه النفوس فتكون راضية مرضية ..... فمن يلزم نفسه ألزمته ، ومن لم يطالبها طالبته ، ومن لم يخضعها أخضعته ، ومن لم يملكها ملكته ... فأحذرها وروضها وجاهدها وحاسبها وخالفها تكن فى رحمة الله وفى معية الله .. ومن كان كذلك فلا يضل ولا يشقى ولا يزيغ ولا يهوى ..والشقى هو الذى يلوم نفسه على فوات حظها وهواها. ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر] .

الأمر الرابع : التشريع حق الله وحده ، والقول فى الكتاب فصل وحكم قاطع .

١ ـ لا حاجة لدستور مساعد بعد دستور الله .

إنه لا يملك أحد أن يقترح على الله شيئاً ولا أن يزيد أو ينقص من تشريع هذا الدين أو

---

(١) ابن كثير (١/ ٥٢٨) .

يعدل فيه أو يبدل حتى ولو كانت عبادة من العبادات القصد منها التقرب إلى الله وحده فلا يحدث فيها هيئة من عند نفسه .. فالتشريع من حق الله وحده أوحاه إلى رسوله ﷺ وأورثه الصالحين من عباده وأستلمه أصحاب رسول الله ﷺ ورجاله التابعين كاملاً شاملاً قائماً بأركانه ، ثابتاً بأعمدته وقواعده لا نقص فيه ، قوياً محفوظاً بأمر الله فى كتاب الله ، جلياً فى سنة رسول الله ﷺ ، عظيماً بمنهجه ، مستقيماً بتشريعه وشريعته بما يكفل للناس أمورهم وحياتهم فى كل شئون الدنيا ...ما ترك شيئاً إلا وقد دلنا عليه ، إما دلالة مبينة مشروحة ، وإما مجمله نتلقى بيانها من رسول الله ﷺ ومن الإجماع أو من القياس الذى يثبت بنص الكتاب ، والكتاب فيه الحكم القاطع والقول الفصل فى أمور الدنيا والأخرة ،، ما ترك شيئاً دون تدبير يشمله وعلم يحصيه .. جاء مفصلاً أو تأصيلاً كله فى دستور الله ، والأمة ليست بحاجة إلى دستور مساعد . قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزُّمَر] .

وقال سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] .

وكم من الآيات فى كتاب الله تفيض جواهرها بمخزون الله من البلاغة والإعجاز وعلم الله الكائن بتدبيره وحكمته وتقديره ومشيئته ليشمل كل شيء فى الحياة ،، وما تحتاج إليه خلائقه « كله فى منهج الله » .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام].

فليس من حق أحد كائناً من كان أن يخترع أو يقترح أو يغير من معالم هذا الدين ،، كل ما تحتاج إليه البشرية من أمر الدين والدنيا من المعاش والميعاد والأحكام ، والحلال والحرام ، والثواب والعقاب، والهدى والضلال، والوعد والوعيد،،كل شيء فى الوجود ، وبغير تحديد لا حدود له ولا قيود ... كله فى كتاب الله .

جاء القرآن فيه بأصوله الثابتة ، وترك لرسول الله ﷺ مهمة شرحه وبيانه وإبلاغه وإعلانه لتوضيح جواهره وقوة سلطانه، وتولى تشريعاته وأركانه ـ فكان رسول الله ﷺ الرسول الوحيد الذى آمنه الله على التشريع ، وما كانت مهمة الرسل السابقين إلا إبلاغ الرسالة .

لذلك قال سبحانه وتعالى فى حق رسولنا الكريم مبيناً مقامه ﷺ ومكانته فى الدعوة الإسلامية آمراً عباده بطاعته والولاء لشريعته .. ومحذراً إياهم من غضب الله وعقابه .

فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر] .

٢ – محبة رسول الله ﷺ التزام بمنهج الله وشريعته .

وسنته ﷺ ثابتة فى الكتاب قولاً وفعلاً وتقريراً بالشرح والإيضاح وقد أخبر الله تعالى أن تحقيق الإتباع لمنهج رسول الله هو علامة الصدق فى محبته ، والمحبة لرسول الله ﷺ تكون فى طاعته والإلتزام بمنهجه وشريعته .

قال سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

والإتباع لسنة النبى صلى الله عليه وسلم هو الغاية التى يهتدى بها الناس إلى الحق ويجتمعوا عليه ولا يتفرقوا ، كما اجتمع عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى .

يقول سبحانه وتعالى فيما يجب من طاعة الله وطاعة رسوله .

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء] .

والذين عصوا الرسول وجحدوا وحدانية الله تمنوا فى موقف الحساب والجزاء لو سواهم الله بالأرض فصاروا تراباً مثلها : ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ] .

وتمنوا أنهم لم يكونوا كتموا الله حديثا لأن الله يفضحهم ويذلهم بشهادة جوارحهم عليهم .

قال سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء:] .

والحب أن نقدس الرسالة التى جاء بها ﷺ ، وأن نصون معالم الحق المنزل .. الحب فى التأسي به ، والإلتزام بمنهجه .

ولا قيمة لحب يقتصر على تحريك اللسان دون الحركة والجهاد والإتباع ... والناس فى بداية الرسالة تفانوا فى حبهم لرسول الله ﷺ.

« فهذا زيد بن حارثه يختار البقاء معه ﷺ عبداً على إلحاقه بأبيه وقومه حرا ، قال زيد : ما أنا الذى أختار عليه أحداً أبدا» [1] .

---

(١) صفوة الصفوة ١٤ / ١٧٤ .

« وهذه امرأة من بنى دينار استشهد زوجها وأبيها وأخيها فى معركة أحد وتقول أرونى رسول الله أنظر إليه ، فلما رأته قالت : الحمد لله ، كل مصيبة بعدك تهون يا رسول الله »[١] .

« وهذا زيد بن الدثنه ﷺ أسره المشركون ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه ، فاجتمع رهط من قريش وفيهم أبو سفيان بن حرب قبل أن يسلم ، فقال أبو سفيان أتحب أن يكون محمد عندنا الآن نضرب عنقه مكانك ؟ .. قال والله ما أحب أن تصيب محمداً شوكةً تؤذيه يقول : قال أبو سفيان : ما رأيت قوم قط أشد حباً لصاحبهم من أصحاب محمد له »[٢] .

« وهذا عمر بن الخطاب يقبل الحجر الأسود ويقول : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك »[٣] .

لقد وعى المسلمون قول رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين[٤] .

وما كان رسول الله ﷺ يملك سلاحاً يحمل الناس على حبه وطاعته ، وما كان الإسلام ليسوق الناس بالسلاسل إليه ... إنما هو الإيمان الذى كان يملكه النبي ﷺ فيلين به الحديد ، ذلك الذى جمع حوله كل القلوب لتعلو على حدود الأجناس والأوطان ،، هذا عربى ، وهذا فارسى ، وهذا حبشى ، وهذا رومى ، كلهم على قلب رجل واحد .. فتفجرت طاقات الإيمان بالتعاطف والتراحم بينهم جميعاً كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .. لم تجد الفرقة طريقاً إليهم ، ولا الفتنة سبيلاً إلى صفوفهم ، كلهم أخوة فى الإيمان .

... ومفتاح السعادة فى اتباع سنة النبي ﷺ والإقتداء بمنهجه فى جميع مصادرة وموارده وأقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته ، وتقريراته ـ حتى فى هيئة أكله وشرابه وقيامه ونومه وكلامه ـ فى جميع عاداته ، كل العادات وليس فقط العبادات .. ومن لم يقتد برسول الله ﷺ فى كل ما أمر به ونهى عنه وما اشتملت عليه شريعته التى أورثها لنا ـ كان بذلك مقصراً فى الحفاظ على ميراث سنته ، خارجاً عن دينه ، لاحقاً بأعدائه .

---

(١) بن هشام ٢/ ٩٩ ، والرحيق المختوم ٢٧٣ .

(٢) صفوة الصفوة ١/ ٣٠٩ .

(٣) عن عابي بن ربيعة (متفق عليه) .

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة - الفتح ١ (١٣٢ : ١٣٥) .

وفى الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فانتهوا »[١].

وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ :«من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» .

وفى رواية مسلم « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

أي أنه من أنشأ أو اخترع من قبل نفسه فيما شرعه الله ورسوله ما ليس فيه فعلاً وقولاً واعتقاداً فهو مردود على فاعله .

قال بن عباس رضي الله عنهما : لا تقول فى أمر قال فيه رب العالمين ، أو أمر به رسول الله ﷺ ـ لا تقول خلاف الكتاب والسنة ـ فلا قضاء فى أمر لا يرجع فيه إلى قول الله تعالى فى كتابه وقول رسول الله ﷺ فى سنته[٢] .

وقال الإمام الشافعى : « إذا وافق كلامى الحديث فاعملوا به وإذا خالف كلامى الحديث فاضربوا بكلامى عرض الحائط »[٣] .

وحاشا لله أن يكون رسول الله ﷺ قصر عن تبليغ الرسالة كاملة ، فالمعصوم عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى ، والذى يكلفه هو صاحب الأمر كله ، والذى يعود إليه الميراث كله ... ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الغربة[٤] والله يقول :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة] .

وروى أنه ذكر عند عمر بن الخطاب فى أيامه حُلِيّ الكعبة وكثرته، فقال قوم : لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر ، وما تصنع الكعبة بالحُلِيّ ؟ فهمّ عمر بذلك وسأل أمير المؤمنين على بن أبي طالب ﷺ فقال : إن القرآن أنزل على النبي ﷺ والأموال أربعة « أموال المسلمين فقسمها بين الورثة فى الفرائض ، والفيء فقسمه على مستحقيه ، والخمس فوضعه الله حيث وضعه ، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها ...

---

(١) ابن كثير ٤/ ٣٣٦ .

(٢) بن كثير ٢ / ١٠٤ .

(٣) كتاب الحرام - الإبداع فى مدار الإبتداع للشيخ على محفوظ .

(٤) من حديث عائشة البخاري ٣ / ١٢٠ .

وكان حُلىّ الكعبة فيها يومئذ فتركه الله على حاله ، ولم يتركه نسيانا ، ولم يخف عليه مكانه « أى لم يكن مكان الكعبة خافياً على الله » قال ﷺ : فأقره حيث أقره الله ورسوله .

فقال له عمر : لولاك لافتضحنا ... وترك الحُلىّ بحاله [١] .

وإن الأدب مع الله بالتقوى والخشية والحياء يتمثل فى إدراك حدود العبد أمام ربه وأمام رسوله ﷺ ـ لا يقترح عليه ولا يتجاوز ما يأمر به ، وما ينهى عنه ـ كذلك لا يفتى فيما ليس له به اختصاص ، ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأياً مع خالقه .

يقول ﷺ : « والذى نفسى بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وباعاً بباع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا : ومن هم يارسول الله ؟ أهل الكتاب ؟ قال « فمن » [٢] .

وهكذا رواه أبو معشر عن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة ﷺ عن النبي ﷺ فذكره وزاد ـ قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم القرآن .

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة] .

أى فاحذروا ياأهل النفاق والكفر أن تفعلوا فعل الذين من قبلكم وتسلكوا سبيلهم ، وقد أهلكهم الله بأعمالهم وأفعالهم كانوا أشد منكم قوة وبطشاً وأكثر أموالاً وأولادا فتمتعوا بحظهم ونصيبهم من الدنيا ، وأنتم تفعلون الآن ما فعلوا ، فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم « وخضتم كالذي خاضوا » قالوا:يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال : فهل الناس إلا هم [٣] .

وقال عليه الصلاة والسلام لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : بيننا وبينكم هذا القرآن ـ فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ،

---

(١) نهج البلاغة للشيخ محمد عبده (٤/ ٦٥) .

(٢) ابن جريج .

(٣) يقول بن كثير وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح - بن كثير ٢ / ٣٦٨ - م الطبرى ١/ ٣٣١ ورواه أبو معشر المقبري عن أبي هريرة .

وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ـ «ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه »[١] .

فمن يأتمر بهواه لا يرى حجة يستضئ بها ، ولا يعى شيئاً يهتدى به ـ فقد خذله الله عن سبيل الرشاد ، ومن أدرك الحق وسلك سبيله واستقام على منهج الله الذى لا تؤثر فيه الأهواء فقد نجا ، وجلب لنفسه الخير كله ـ والهدى والرحمة من الله .

٣ – كل شيء .. أى شيء .. فى كتاب الله .

إنه الكتاب الجامع لكل ما نزل على الرسل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى يوم الدين .. هو الفاصل بين الناس فى كل ما يتنازعون فيه ..به كل علم نافع من خير ما سبق ، وعلم ما سيأتى .. تبياناً لكل شيء .. فكل شيء عند الله علمه ، يدبر سبحانه كل شيء ، ويرزق كل شيء ، ولا ينسى شيء ـ كل ما يسمى شيء ـ كل ما وقع حدث ، وما يقع وما يستجد .. كله فى كتاب الله .

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام] .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاه الجلحاء من الشاه القرناء »[٢] فبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجلحاء من القرناء .

وعن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال : يا أبا ذر هل تدرى فيم تنتطحان ؟ قال : لا ، قال عليه الصلاة والسلام : لكن الله يدرى وسيقضى بينهما[٣] .

وسنتناول بيان عدل الله فى أنصبة الميراث القادمة بهذا الكتاب إن شاء الله رب العالمين ـ والحجة على الناس ببيان رسول الله ﷺ وفيه الرشاد والسداد والفلاح للعباد .

٤ – القرآن يفصل بين السابقين والمعاصرين .

السابقون اختلفوا فجاء القرآن ليفصل بينهم وبين لهم وجه الحق فيه ... اختلف النصارى فى المسيح وفى أمه مريم كما ذكرنا قبل ، وفى مسألة صلبه ، ومن قبلهم حرف اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية .. وجاء القرآن يقول كلمة الفصل فى المسيح وأمه « إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأنه بشر » .

---

(١) صحيح الجامع ٧١٩٢ ـ وروى من طرق من حديث أبي رافع ، وأبي ثعلبه عن أبي هريرة (كتاب الإيمان لأبن تيمية) .

(٢) رواه مسلم (القرطبي ٣/ ٢٥٠٥) .

(٣) رواه الإمام أحمد (ابن كثير ٢ / ١٣١) .

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزُّخرُف].

وجاء القرآن ليبين الأصل الذي أنزله سبحانه فقال:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥].

وبين لهم تاريخهم وتاريخ أنبيائهم مجرداً من الأساطير والأوثان .. فطهر صفحات هؤلاء الرسل مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية، وحكم بينهم جميعاً فيما اختلفوا فيه بعد أن اتخذ بنوا إسرائيل أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم، وغيروا وبدلوا بعد ما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ [النمل].

... والمعاصرون لكتاب الله بين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله وتقريراته ما جاء فيه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

وقال جل وعلا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل].

بين تبارك وتعالى لعباده أن كل شيء كتب عليهم، كل صغير وكبير من أعمالهم مجموع عليهم ومسطر في الصحائف ليوم الحساب .. كل ما فعلته الأمم من خير أو شر كان مكتوباً عليهم في اللوح المحفوظ، أو في كتب الحفظة، أو في أم الكتاب « حسب تعدد الروايات » ـ وكل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به، ومكتوب إذا فعلوا .. وترى المشركين خائفين مما كتب فيه من أعمالهم السيئة وتنادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله.

﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القمر].

كله مسطور وهو كائن لا محالة ـ قال بن عباس رضي الله عنهما: أخبر الله سبحانه وتعالى فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخل الصالحين من عباده الجنة قضاها لهم فى الدنيا والآخرة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء].

قيل أن أرض الدنيا يستحقها المؤمنون الصالحون وبلاغاً لنفعه للذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه فآثروا الله وطاعته على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم[1].

ولقد استخلف الله تبارك وتعالى أدم فى الأرض لعمارتها وإصلاحها، وإستخدام كنوزها، واستغلال ثرواتها ... ووضع سبحانه وتعالى للبشر هذا المنهج الكامل الشامل، وشرع لهم القوانين، وقد علم جلت عظمته ما يعترض الناس فى حياتهم فجعل فى المنهج حمايتهم وأمنهم ـ والصالحون من عباد الله يورثهم الأرض جزاء أعمالهم الصالحة فى الدنيا ويورثهم الجنة فى الآخرة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزُّخرُف].

وكتب سبحانه وتعالى للمؤمنين النصر فى الدنيا إنتقاماً من الكافرين الذين يقهروهم ويؤذونهم .. والنصر يوم القيامة ـ يوم تشهد الملائكة والأنبياء والمؤمنون على الأمم المكذبة لرسلها بأن الرسل قد بلغوا أممهم رسالات ربهم[2].

قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر].

ذلك بلاغ القرآن ليتفكر الناس ويعتبروا ويتعظوا ويستقر الإيمان فى قلوبهم وقد أقيمت الحجة ،، ولا حجة بعد القرآن ،، ولا عذر لأحد.

---

(١) م الطبري ٢ / ٦٢ ، بن كثير ٣ / ٢٠١ .

(٢) م الطبري (٢/ ٢٩٧) .

٥ – عناصر الاجتهاد وشروطه على سنة رسول الله ﷺ .

الأمور الحادثة التى لم يتقدم فيها قول فى الكتاب والسنة وقد رشد على الاجتهاد فيها ـ فإن باب الإجتهاد مفتوح لم يسد ، والعلماء المجتهدون يستنبطون الأحكام فى إطار ما شرعه الله بالكتاب والسنة ـ وأقول لإخواننا الشباب الذين منحهم الله علماً يتحدثون به للناس فى المساجد ، أو الذين يجتهدون أمثالنا فى إلتماس الكمال والتقرب إلى الله .. لقد حمل الرسول ﷺ العالم المتساهل في الفتوى والمضل لغيره بتساهله إثم طالب الفتوى فقال فيما رواه عنه أبو هريرة وأخرجه أبو داود : «من أفتي بغير علم كان إثمه علي من أفتاه» وزاد سليمان المهري في حديثه « ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه» [1] ولا يزال المرء عالماً ما طلب العلم حتى إذا ظن أنه قد علم فقد جهل .. وإذا كان لأحد منهم رخصة الكلام رسمياً بشهادة التخرج فليحذر لما يفتى به ـ فقد يترتب على فتواه فتنة تصيب الناس ، وليس لأحد الإحاطة بعلم كل شيء وقد رأينا فى المساجد الكثير من الجدل لتعدد الآراء فى موضوع القضية الواحدة ، فذلك الذى يتجاوز الحق فتتقاذفه الأهواء ، ولا يترك فى الناس إلا الحيرة والشك – فإذا ما كان الهوى متبعاً وأعجب كل ذى رأى برأيه تنازع الناس واختلفوا ، فتفقد الثقة فى رجال الدين .

﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون] .

وتعدد الآراء لا يأتى إلا بالخروج عن خط الله المستقيم والمنهج القويم الذى يوحد كلمة كل المؤمنين ... أقول إن هذه ليست مهمتنا .. وأبواب الدين واسعة المعالم ، ويستطيع كل منا أن يؤدى دوره فى إبلاغ ما تعلمه ويعلمه ، ولكن لكل منا حجم يقف عنده ويعرف حدوده وإلا فقد أفسد وهو يظن الصلاح ، فيهدئ باجتهاده إلى البدعة والضلالة .

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:] .

الاجتهاد مهمة العلماء المتخصصون وهم ورثة الأنبياء ، وليس من حقنا جدالهم .بل علينا سمعهم وطاعتهم ـ إنهم يملكون الشروط التى تحقق الاجتهاد من أصول الأحكام فى الشريعة ومنها :

أ ـ العلم بكتاب الله تعالى ناسخا ومنسوخا ومحكما ومتشابها وعموماً وخصوصاً مجملاً ومفسراً .

---

(١) نقلا من كتاب هذا حلال وهذا حرام للشيخ عبدالقادر عطا (ص ١٩) .

ب ـ العلم بسنة رسول الله ﷺ الثابتة من اقواله وأفعاله وتقريراته وما تواتر عنه عليه الصلاة والسلام فى جميع مصادره وموارده وحركاته وسكناته .

جـ ـ العلم بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه ـ ليتبع المجتهد الإجماع ، ويجتهد برأيه فى الإختلاف.

د ـ العلم بالقياس الموجب لرفض الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها.

إنها مهمة العلماء فأتركوها لهم ، فتلك الأمور لا تتوفر إلا لهم ليواجهوا بها قضايا العصر .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء] .

وقيل فى أولى الأمر «الذين يحكمون بالعدل ويؤدون الأمانة » وقيل « هم أهل القرآن والعلم » قال الضحاك : هم الفقهاء والعلماء فى الدين[1] فالرجوع إلى الحق كما قال عمر بن الخطاب ﷺ خير من التمادى فى الباطل ، والسمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة – إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

٦ ـ المشورة واجبة فى غير الأحكام والنصوص .

والحق تبارك وتعالى يقسم بنفسه الكريمة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسول الله ﷺ فى جميع الأمور ما كبر منها وما صغر ـ وتشريع الله له السمع والطاعة ، وعلى المؤمنين الإمتثال بالأمر .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥]

ولم يكن رسول الله ﷺ فظاً ولا غليظاً ولا صخاباً فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويتشاور فى الأمر .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران] .

---

(١) القرطبي ٢/ ١٩٢٢ .

فوجبت المشاورة على رسول الله ﷺ وهو الحاكم للأمة .

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى:٣٨] .

وقد بينت لنا سنته الشريفة أنه ﷺ :

« شاور أصحابه يوم بدر ، وقالوا يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك» .

« وشاورهم فى أحد أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو فأشاروا بالخروج فخرج معهم » .

« وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة وقتها ـ فأبى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة « السعدان» ـ فترك ذلك» .

« وشاورهم يوم الحديبية فى أن يميل على زرارى المشركين ـ فقال له الصديق : إنا لم نجىء لقتال وإنما جئنا معتمرين ـ فأجابه إلى ما قال عليه الصلاة والسلام» [1] .

وجمع رسول الله ﷺ المسلمين على كلمة واحدة يتفقون عليها فلا يستأثر أحد برأى دون ألفة الجماعة – وتلك المشورة ليست بالأحكام ، فالأحكام منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام .. وليست المشورة فى أى مسألة ورد فيها نص فى القرآن أو السنة التى تعد تشريعاً عاماً ـ فتلك مشورة لا جدوى فيها .

وإذا كانت المشاورة وجبت على أشرف الخلق ﷺ فهى من باب أولى أن يتشاور ملوك وحكام ورؤساء الدول الإسلامية بعده عليه الصلاة والسلام بأهل العلم والرأى والمشورة لبحث صلاح هذه الأمة .

وكان صحابة رسول الله ﷺ يمتثلون لأمر الله ورسوله ـ وببركة سيدنا رسول الله ﷺ وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً فى مدة يسيره مع قلة عددهم نسبة إلى جيوش الروم والفرس والترك والصقالية والبربر وغيرهم ، وغيرهم.

وكلهم قهروا .. وعلت كلمة الله وأظهر الله دينه على سائر الأديان ... وسيندم العصاة فى جهنم على عدم طاعتهم لله ورسوله .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

حين بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل ﷺ قاضياً لأهل اليمن وأراد أن يستوثق من

---

(١) ابن كثير ١/ ٤٢٠ .

إمكانياته فى القضاء فسأله بما تقضى ؟ قال : بكتاب الله تعالى .. قال : فإن لم تجد ؟ ..قال : بسنة رسول الله ﷺ .. قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد برأيى ولا ألو « أى لا أقصر فى الاجتهاد» فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضي الله ورسوله [١] .

٧ – الاجتهاد فى أمور الدنيا طاعة يرضى بها الإسلام .

وقد ترك الحق سبحانه للناس حرية التفكير والعقل فى أمور الدنيا ، تركه للاجتهاد ، فمن أصاب فيه فله أجران ومن أخطأ فله أجر ـ عن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر [٢] .

ورحم الله الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية [٣] - كان وهو فى باريس حدث عنه أن أحد المستشرقين قال له : أليس فى آيات القرآن .

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] .

قال : بلى .. قال له : فهات لى من القرآن .. كم رغيفاً يوجد فى أردب القمح ؟ قال الشيخ : نسأل الخباز فعنده إجابة هذا السؤال .. فقال المستشرق : أريد الجواب من القرآن الذي ما فرط فى شيء .. قال الشيخ: هذا القرآن هو الذي علمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر فقال [٤] : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء] .

وكل اجتهاد يرد إلى أهل الاجتهاد : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء] .

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٢٣٠ - وأبوداود ٣٥٧٨ - والترمذي ١٣٣٧ - ورواه بن ماجه (ابن كثير ٤/ ٢٠٥) وقال الخطابي فى معالم السنن يريد الإجتهاد فى رد القضية من طريق القياس إلى معاني الكتاب والسنة ولم يرد الرأى الذى يمسح له من قبل نفسه أو يخطر بباله من غير أصل من كتاب أو سنه (عون المعبود فى شرح سنن أبوداود ٩/ ٣٦٩) (الشعراوي ١٣/ ٨١٤٩) .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ١٧١٦ وصحيح البخاري ٧٣٥٢ .

(٣) الشيخ محمد عبده من رجال الإصلاح والتجديد وله تفسير للقرآن الكريم ورسالة التوحيد وأصدر مع جمال الدين الأفغاني جريدة العروة الوثقى فى باريس وقد تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا ثم الأزهر وتوفى بالأسكندرية عام ١٩٠٥ (الإعلام للزركلى) ٦/ ٣٥٢ .

(٤) الشعراوي ١٣/ ٨١٤٩ .

فالاجتهاد مأخوذ من كتاب الله ، وكل ما صدر عن رسول الله وعن الإجماع ، وعن الأئمة المجتهدين موجود كله فى القرآن ..

ورسول الله ﷺ حينما رأى الناس يؤبرون النخل [١] وهو ما يعرف بعملية الإخصاب حيث يأخذون من الذكر ويضعون فى الأنثى .. قال لهم النبي ﷺ لو لم تفعلوا لأثمر .. ففي الموسم القادم تركوا هذه العملية فلم يثمر النخل ،، فلما سُئل رسول الله ﷺ عن ذلك قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » [٢] .

وفى ذلك أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون فقال لو لم تفعلوا لصلح ـ فقال : فخرج شيصا ـ فمر بهم فقال ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا ـ قال : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

قال فضيلة المرحوم الشيخ الشعراوى « لا يصح فى حق رسول الله ﷺ أن يقال عنه أنه يشير على الناس بشيئ ويتضح خطأ مشورته ، إنما الرسول عليه الصلاة السلام هنا يريد أن يوصل قاعدة فى نفوس المتكلمين فى شئون الدين « إياكم أن تقحموا أنفسكم فى الأمور المادية المعملية التطبيقية فهذه الأمور يستوى فيها المؤمن والكافر » ـ ولذلك عندما أكتشف العلماء كروية الأرض وأنها تدور حول الشمس أعترض على ذلك بعض رجال الدين ووضعوا أنوفهم فى قضية لا دخل للدين فيها ـ وقد صعد العلماء إلى كواكب أخرى وصوروا الأرض وجاءت صورتها كروية فعلاً ـ « فلا تفتحوا على أنفسكم باسم الدين بابا لا تستطيعون غلقه » [٣] .

وما كان يجب على هذه الأمة أن تتنازع أو تختلف إنها أمة واحدة ودين واحد وكتاب واحد تخضع لإله واحد ورسولها واحد .

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون] .

وما يجلب التنازع والإختلاف إلا التخاذل والفشل والتفكك فتذهب القوة والحدة وكما ذكرنا فى حديث رسول الله ﷺ « تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها » [٤] ، فلابد من الرجوع إلى الله ورد الإختلاف إلى منهجه وتحكيم رسوله ﷺ .

الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه – وأمر تبين غيه فاجتنبوه – وأمر اختلف فيه فإلى الله ورسوله ردوه .

(١) أي يلقحونه .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ٢٣٦٣ من حديث أنس بن مالك .

(٣) الشعراوى ١٣ / ٨١٥٤ .

(٤) أخرجه أبو داود ٤٢٩٧ وابن عساكر عن ثوبان مولي رسول الله ﷺ ـ ورواه ابو داود والبيهقي في دلائل النبوة .

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال] .

فالحكم من عند الله قاطع وفاصل بالعودة إليه وإلى رسوله وإلى أولى الأمر فى كل إختلاف .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب] .

فليس لأحد المخالفة أو إبداء الرأى ـ ولا إختيار لأحد ـ كل شيء تحت أمر الله ، ومن يعص الله ورسوله فقد جار عن قصد السبيل وسلك غير سبيل الهدى والرشاد [1] .

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور] .

الأمر الخامس : شهداء الله فى الأرض وخير أمة أخرجت للناس .

١ - العلم والتعلم والتناصح حق للجميع :

إن العلم ليس له وطن ولم ينفرد به أحد بعينه ، أو جيل بعينه .. وليس حكراً على أحد ـ لقد شرف الله العلماء وهم خواص هذه الأمة بحمل الأمانة لأنهم ورثة الأنبياء ـ ولكن الأمر الموجه لرسول الله ﷺ هو أمر لأمته ـ وأبناء الأمة مكلفون فى كل موقع وعلى أى مستوى بالتبليغ عن الله أسوة برسول الله ﷺ كل بقدر ما أفاض الله عليه من علم الله الذى لا ينتهى ونعمته التى لا تزول ـ وسيبقى التعليم والتعلم جوهر الإسلام ، فمتعلم يطلب الهدى والرشد ، وعالم يطلب المزيد ـ فهما شريكان فى الخير .

وما فيه المسلمون اليوم من سوء الحال يعود السبب فيه إلى إهمال التناصح بين الناس ، والتواكل فى أمر الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

قال تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] .

إن لهذه الأمة المعتدلة على ملة إبراهيم والشاهدة للأنبياء أنهم بلغوا أممهم رسالات الله

---

(١) م الطبري ٢/ ٢٠٨ .

وشهداء الله فى الأرض والتى خصها الله سبحانه بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب ـ لها القيادة والطليعة على كل الأمم لكونها خير أمة أخرجت للناس تنقذهم من الشر ، وتحميهم من الفساد ، وتقضى على الفتة بين المسلمين ، فتعود بهم إلى فطرتهم التى فطرهم الله عليها فى التواد والتراحم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، تقف بأبنائها صفاً واحدا موحداً لله ، لا تدخله التفرقة إليهم من أى باب ـ فإذا ما تسلط عليهم الشيطان وغلبت عليهم الأهواء سرعان ما وجدوا من يعيدهم إلى فطرتهم ويرشدهم إلى سبيل الهدى والسلام .

أمة هى خير الأمم تدعوا إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتمنع الشر من الإقتراب إليها فتواجه الطواغيت بشدتها وجبروتها بتوجيه الله ، وتصون الإسلام من عبث العابثين وفساد المفسدين وعبدة الأهواء وأصحاب المصالح والشهوات .

وأنفع الناس للناس فى هذه الأمة أتقاهم وأوصلهم للأرحام وفيهم أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله .

قال الإمام أحمد عن يزيد بن ميسرة قال : سمعت أبا الدرداء سمعت أبا القاسم ﷺ وما سمعته يكنيه قبلها ولا بعدها يقول : إن الله تعالى يقول يا عيسى إنى باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم . قال : يارب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم ؟ قال : أعطيهم من حلمي وعلمي .

وقال الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال: «إن ربي أعطاني سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب» فقال عمر يا رسول الله فهلا استزدته فقال : استزدته فأعطانى مع كل ألف سبعين ألفاً .. قال عمر : فهلا استزدته قال : « قد استزدته مع كل رجل سبعين ألفاً»، قال عمر: فهلا استزدته «قال استزدته فأعطانى هكذا ...» فمازال رسول الله ﷺ يستزيد ويزيد الله أمته من رحمته [1].

ذلك شأن هذه الأمة التى لها الطليعة والقيادة .. الأمر بالمعروف فيها والنهى عن المنكر مهمة السلطان صاحب الأمر وولى الأمر ، والتنفيذ مهمة العلماء ورثة الأنبياء ، فهم أمناء الله تعالي علي شرعه ، والحافظون لدينه ، والقائمون على حدود الله .. وهم أئمة الناس ، وقادة الخلق ، يسيرون بهم نحو السعادة بما يعلمونهم من أمور دينهم،وبما

---

(١) ابن كثير ١/ ٣٩٢ .

يرشدونهم إليه من التحلي بالفضيلة، والتخلي عن الرذيلة ، علماء الأمة الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ـ الذين نصرهم الله بنصر السابقين وثبت لهم الأمر بثبات سلفهم الطاهرين فدعوا إلى الخير والصلاح ودفعوا الناس إليه وقاوموا الشر والفساد ونهوا الناس عنه . ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج] .

وتلك دائماً صفة الأمة المسلمة التى لا تبقى على منكر وهى قادرة على تغييره ولا تقعد عن معروف وهى قادرة على تحقيقه ، والأمر بعد ذلك لله يصرفه كيف يشاء . عن محمد بن أبى حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فقال: «أتدرون أى الخلق أفضل إيمانا» قلنا: الملائكة . قال : « وحق لهم بل غيرهم » قلنا : الأنبياء . قال : « وحق لهم بل غيرهم » .. ثم قال رسول الله ﷺ : أفضل الخلق إيمانا قوم فى أصلاب الرجال يؤمنون بى ولم يرونى يجدون ورقاً فيعملون بما فيها وهم أفضل الخلق إيماناً [١] وقيل قلنا : يا رسول الله هل أحد خير منا ؟ قال : نعم قوم يجيئون من بعدكم فيجدون كتاباً بين لوحين فيؤمنون بما فيه ويؤمنون بي ولم يروني [٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن أمامكم أياماً الصابر فيها على دينه كالقابض على الجمر للعامل فيها أجر خمسين رجلاً يعمل مثل عمله» قيل يا رسول الله : منهم ؟ قال : « بل منكم » [٣] .

وقال عمر بن الخطاب ﷺ فى تأويل قول الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

قال: من فعل مثل فعلكم كان مثلكم . فذلك من الإيمان والعمل الصالح فى الزمان الفاسد الذى يرفع فيه من أهل العلم والدين ويكثر فيه الفسق والهرج ويُذل المؤمن ويعز الفاجر ، ويعود الدين غريباً كما بدأ غريباً ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر فيستوى حينئذ أول هذه الأمة بآخرها فى فضل العمل ـ إلا أهل بدر والحديبية [٤] .

---

(١) فى مسند أبوداود الطيالسي .

(٢) رواه صالح بن جبير عن أبي جمعه .

(٣) رواه أبو ثعلبه الخشني .

(٤) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ٢ (١٥١٩ ، ١٥٢٠) .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران] .

وقلوب المؤمنين دائماً متحدة فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم يتناصرون فى الخير ، بعضهم أنصار بعض وأعوانهم على عكس المنافقين الذين اتفقت طباعهم وأفعالهم وأقوالهم على دس الفتن والمؤامرات وتعددت سماتهم فى اللؤم والمكر والخداع والغش والخيانة والغمز واللمز، والإنحراف عن طريق الله ، فتراهم جبناء عن المصارحة والمواجهة ، لا يستريحون للحق ولا يخشون إلا الأقوياء من البشر . يذلون لهم بضعفهم وجبنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

قال الله تعالى فى المؤمنين والمؤمنات :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة] .

ووعدهم الله سبحانه وتعالى جنات الخلد التى يسكنها النبيون والصديقون والشهداء، وعدهم الإقامة فيها ، ومن دخلها لا يخرج منها ، قصورها من اللؤلؤ والياقوت والله أعلم بها ، فقد أعدها سبحانه وتعالى لهم ووعدهم بها ، يتمتعون ببساتينها التى تجرى من تحتها الأنهار ومساكنها الطيبة يقيمون فيها أبدا ولا يزول عنهم نعيمها .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة].

وقال سبحانه وتعالى فى المنافقين والمنافقات :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة].

فهم الخارجون عن طاعة الله لذلك كان الوعد لهم بنار جهنم يمكثون فيها أبدا وهي كافيتهم عقابا على معصيتهم وخروجهم عن شريعة الله ، فأبعدوا من رحمة الله ، وعذابهم فى جهنم دائم لا ينقطع .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [التوبة] .

٢ ـ وجوب اللعنة للكافرين لا توقف دعوة الناصحين .

وقد لعن الكافرون فى التوراة والإنجيل وفى الزبور وفى القرآن ـ لعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلق الله ـ كتب الله على بنى إسرائيل السخط واللعنة إستجابة منه سبحانه وتعالى لأنبيائهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم فإذا هم يعصون ويكفرون ويرتكبون المآثم والمحارم ، ولا ينهى أحد منهم احدا .. ينهاهم علماؤهم فلا ينتهوا وقد جالسوا الآثمين فى مجالسهم وأسواقهم وواكلوهم وشاربوهم .. تلك كانت سماتهم وطابعهم على مدار التاريخ .. فهم الذين نقضوا العهود والوعود التى عاهدوا بها نصر أنبيائهم ، فكذبوهم وقتلوهم .. كانوا يجحدون حجج الله ويقتلون الذين يأمرون بالعدل وينهون عن إرتكاب المعاصى .

وقد روى أن اليهود قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا فى أول النهار . فقام مائة رجل من عباد بنى إسرائيل من أتباع الأنبياء فنصحوهم وذكروهم ـ فقتلوهم من أخر النهار جميعا ، وفيهم نزل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [آل عمران] .

وقيل مائة وإثنى عشر رجلاً من عباد بنى إسرائيل أمروا ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعا ، وقيل مائة وسبعون رجلا [١] .

فذمهم الله تعالى بما ارتكبوه من المعاصي والمآثم والمحارم . إذ كذبوا آيات الله واستكبروا على رسلهم وعاندوهم وتعاظموا على الحق واستنكفوا عن اتباعه .

فجعل الله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] .

---

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٣٩٨ ـ وبن كثير تفسير القرآن العظيم ١ / ٣٥٥ .

فالذين يؤدون واجب الله وحقه فى الدعوة إليه بالمعروف والنهى عن المنكر والتخويف من الآثام والمعاصى والحرمات علم الله أنهم قد أدوا واجبهم نحو تلك القلوب العاصية ـ ولعل الموعظة تحرك مشاعرهم فتثير فيها تقوى الله .

فرقة منهم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فهى الناهية عن المعصية ، والفرقة الأخرى فرقة العصاة الذين كتب الله عليهم الهلاك ، والثالثة تقول للأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر لا فائدة مع هؤلاء العصاة ... ولكن الفئة المؤمنة لاتكل من دعوتها إلى الخير .. فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة قضى الله على الظالمين بالهلاك ونجى الناهين عن المنكر ، والذين تحايلوا على السبت الذى كانت تأتيهم الحيتان فيه . واجترءوا على مخالفة أمر الله فاصطادوا يوم السبت ، أوحى إليهم الشيطان فقال إنما نُهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت ، فتحايلوا على الصيد فيه .. هؤلاء ما يخدعون إلا أنفسهم ـ قال سبحانه وتعالى:

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة] .

فلما نسوا ما ذكروا به مسخهم الله قردة أذلاء مبعدين ومطرودين من رحمة الله عقوبة لما سبق من ذنوبهم السالفة ، وعبرة وموعظة للمتقين المؤمنين .

عن بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتقى الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده،فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة] .

ثم قال: « كلا » والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على

بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم [١].

قال رسول الله ﷺ : « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى ونهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ، فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً فقال«لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا» [٢].

ولما تنزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾[المائدة].

فهمها قوم على غير موضعها يتوهمون أن الإنسان إذا فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه فى نفسه فقد أدى ما عليه ـ وقد بين أبو بكر الصديق ﷺ خطأ الذين قعدوا عن الواجب وأعتبروا هذه الآية أنه لا حرج عليهم فى الأمر والنهى لغيرهم فقال : إنكم تقرءون هذه الآية فتضعونها فى غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابه ـ فبذلك يتضح المعنى أنكم إذا فعلتم ما وجب عليكم فلا يضركم تقصير غيركم مثل قوله تعالى [٣] :

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾[الإسراء:١٥].

فلا يمنع التكليف بالدعوة إلى الله بكلمة حق تقال ، أو نصيحة تبذل، أو معروف تدل عليه ، أو منكر تحذر منه ، أو موقف تقفه فعلاً أو تركاً كما يأمر الدين .. فالدعوة ليست مقصورة على الدعاة المتخصصين .. وعلى كل من عرف حقيقة أو علماً أن يدرك أنه قد وجب عليه البيان .

والذين يدعون الناس إلى البر والخير والصلاح وينهونهم عن الشر والفساد والمعصية ويأخذون بأسباب النصر إبتغاء نشر الحق والعدل والحرية ، وقمع شهوات الناس فى الفتنة والمعصية وغضب الله ، ومطامعهم فى الأذية لخلق الله ... فإن الله ناصرهم بإذنه

---

(١) رواه أبوداود والترمذي قال حديث حسن وهذا لفظ أوداود ، والثاني لفظ الترمذي .

(٢) قوله تاطرونهم أى تعتقوهم - وقول ولتقصرونه أى لتحبسنه رواه الإمام أحمد عن أبي عبيدة عن عبد الله .

(٣) رواه أبوداود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة عن أبي بكر الصديق ﷺ .

ومؤيدهم ويمكنهم فى الأرض ... فإنهم لا يقعدون عن معروف وهم قادرون على تحقيقه ، ولا يبقون على منكر وهم قادرون على تغييره ، إنهم يعترفون بسلطان الله ويُحكمون شرعه ، ويدركون بالإيمان حقيقة التوكل عليه وإحتساب الأجر عنده ... ولا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان فى إنكاره للباطل ، وهو أن لا يتخلى عن الإنكار ولا يستسلم ، فيلحق به الضعف والسلبية .. ولا مكان لهما مع الإيمان والمؤمن الصادق .

٣- الأمر والنهى تكليف للجماعة بالسمع والطاعة .

الإسلام يريد للقائمين على الدين أن يوأدوا أماناتهم التي استحفظوا عليها فيقفوا فى وجه الشر والفساد والظلم والطغيان والإعتداء ، ولا يخاف فى الله لومة لائم .. وإنها لأمانة فى عنق كل فرد قبل أن تكون عامة فى عنق الجماعة .

روى الإمام أحمد عن عدى بن عميره ﷺ قال : سمعت ﷺ يقول : إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة .

وروى بن ماجه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : لا يحقرن أحدكم نفسه ـ قالوا : يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقول فيه ـ فيقول الله يوم القيامة ما منعك أن تقول فى كذا وكذا وكذا ؟ فيقول خشية الناس ـ فيقول : فإياى كنت أحق أن تخشى (١) .

بذلك فإنه يتطلب من كل أمة المسلمين أفراداً وجماعات ـ من علم منهم شيئاً فليُعلمه ، ومن رأى منهم منكراً فلينكره ويغيره ما استطاع ـ فالأمة كلها مطالبة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن يعرف حكماً فليأمر به ولا يخفى عن الناس علماً وهبه الله له ، والأجدر بمن يأمر وينهى أن يكون أول العاملين بقوله .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان (٢) .

وعن أبي مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ما من نبي بعثه الله فى أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم

---

(١) تفرد به ابن ماجه (بن كثير ٢/ ٨٤) .

(٢) رواه مسلم .

خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ـ فمن اهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل[١].

وعن أبي الوليد عُبادة بن الصامت ﷺ قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا، وعُسْرِنا ويُسْرنا، وأثَرَةً علينا [٢] ، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلاّ أن تروْا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان[٣] .

وعن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ـ فتح ذاليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ـ وحلق بأصبعه الإبهام والتى تليها ، فقلت يارسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث [٤] .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال : أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر [٥] .

وعن أبي زيد « أسامة بن زيد بن حارثه رضي الله عنهما» قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتينه[٦] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) النص لفتح الباري بشرح صحيح البخاري(١٨/ ٦٠١) الحديث رقم ٧٠٥٥ وبه (وأثَرَةً علينا) ـ والمراد أن طاوعيتهم لمن يتولى عليهم لا يتوقف على إيصالهم حقوقهم بل عليهم الطاعة ولو منعهم حقهم) ـ وفي رياض الصالحين بالحديث ١٨٦ ص ٧٨ (وعلى أثَرة علينا) وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ـ وزاد (وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم).

(٣) المنشط والمكره بفتح ميمهما أي (في السهل والصعب ـ والأثرة(الاختصاص بالمشترك) ، وبواحاً: أي ظاهراً ـ والحديث متفق عليه نقلاً من رياض الصالحين .

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه أبوداود والترمذى وقال حديث حسن .

(٦) قوله تندلق معناه تخرج ، والأقتاب هى الأمعاء - والحديث متفق عليه .

ومتى صار عامة الناس يرون المنكرات بأعينهم ويسمعونها بأذانهم تزول عنهم وحشتها وقبحها من نفوسهم ، ويتجرأ على إرتكابها الكثيرون - فتحل بهم لعنة الله وغضبه ما حل بالآخرين .

والأحاديث عن النبي ﷺ فى تأكيد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة جداً ولكنها مقيدة بالإستطاعة .

قال عبد الله بن مسعود يحسب المرء إذا رأى منكراً لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره[١] .

وعن أنس بن مالك قال : قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ - قال : إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم - قلنا : يارسول الله وما ظهر فى الأمم قبلنا ؟ قال : الملك فى صغاركم ، والفاحشة فى كباركم ، والعلم فى أراذلكم « أو رذالتكم »[٢] وفى حديث حذيفة ﷺ قلت للنبي ﷺ : يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهما سيدا أعمال أهل البر ؟ فقال : إذا أصابكم ما أصاب بنى إسرائيل . قلت يارسول الله: وما أصاب بنى إسرائيل ؟ قال : إذا داهن خياركم فجاركم ، وصار الفقه فى شراركم ، وصار الملك فى صغاركم فعند ذلك تلبسكم فتنة تكرون ويكر عليكم[٣] .

وروى الترمذي عن حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال : والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم[٤] .

وروى بن جرير الطبري فى تاريخه نقلاً عن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: أيها المؤمنون إنه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ «أى برأ من الإثم وسلم من العقاب إن كان عاجزاً ومن أنكره بلسانه فقد أجر ، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الظالمين هى السفلى

---

(١) سير إعلام النبلاء - والقرطبي ٢/ ١٣٩٩ .

(٢) قال زيد معنى قول النبي ﷺ والعلم فى رذالتكم أى إذا كان العلم فى الفساق . القرطبي ٢/ ١٤٠١ والحديث خرجه ابن ماجه .

(٣) حياة الصحابة للكاندوهلي ٢/ ٦٤٢ .

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن (بن كثير ١/ ٣٩٠) .

فذلك الذى أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق ونور فى قلبه اليقين ... وقال عليه السلام إن الحق ثقيل مرئ وإن الباطل خفيف وبئ « المرئ من مرأ الطعام أى هنئ حميد العاقبة ».

قال تعالى : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ [النساء] .

والحق وإن ثقل إلا أنه حميد العاقبة ، والباطل وإن خف فهو وبئ وخيم العاقبة ـ وإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق ـ وأفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر ـ وقال ﷺ لجابر بن عبدالله الأنصارى:ياجابر قوام الدنيا بأربعة:« عالم مستعمل علمه ـ وجاهل لا يستنكف أن يتعلم ـ وجواد لا يبخل بمعروفه ـ وفقير لا يبيع آخرته بدنياه».

.. فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم «لاستواء العلم والجهل فى نظره ... وإذا بخل الغنى بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه لأنه يضطر للخيانة أو الكذب حتى ينال بهما من الغنى شيئاً » .

يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه ـ فمن قام لله فيها بما يجب عرضها للدوام والبقاء « أى نصبها له » .ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزوال والفناء .

وقال ﷺ : إن لله عباداً يختصهم الله بالنعم لمنافع العباد فيقرها فى أيديهم ما بذلوها « أى يبقيها ويحفظها مدة بذلهم لها » فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم [١] .

ويقول عدي بن حاتم ﷺ : إن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى ، وإن منكركم اليوم معروف زمان يأتى ، وإنكم لن تبرحوا الخير مادمتم لا تعرفون ما كنتم تنكرون ولا تنكرون ما كنتم تعرفون ، وما قام عالمكم يتكلم بينكم غير مستخف [٢] .

زمان يرفع فيه من أهل العلم والدين ويكثر الفسق والهرج ـ يُذل المؤمن ويعز الفاجر ويعود الدين كما بدأ ، ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر ، فإذا لم يتم تغيير المنكر كان الهلاك .

قال عمر بن الخطاب ﷺ : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها .

والفطرة السليمة تأتى للأمور الخيرة ، وتجعلها متعارفاً عليها بين الناس ، وتنكر الفطرة كل الأمور المنكرة حتى ممن يفعلها ـ لذا وجب على المسلمين أن يتحملوا مسئولية

---

(١) نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ج ٤ (٨٨ : ٩٢) .

(٢) حياة الصحابة ٢/ ٦٤٢ .

هذه الأمانة حفظاً للشريعة وصوناً للأحكام ، وحتى لا يختل النظام بتجاوز المعتدين وذوى الشهوات والأهواء الفاسدة .

والإنتماء للإسلام يتطلب منا المزيد من العطاء - كل على قدر استطاعته ، فكل من وهبه الله علماً فلا يبخل به ، وكل من وهبه الله قدرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وطاعة الله فيهما ... فليحقق شرط الله فى طاعته وإلا فقد تاهت وتاهت .. فخوت القلوب من الحياء واحترام الدين الذى فيه الحياة .

٤ ـ الدين النصيحة .

عن تميم الدارى أن رسول الله ﷺ قال : الدين النصيحة .. قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولائمة المسلمين وعامتهم [١] .

النصيحة كلمة تعبر عن إرادة الخير للمنصوح له ، وليس كلمة تعبر عن هذا المعنى سواها ، وأصل النصح فى اللغة الخلوص ـ يقال نصحته ونصحت له .

وقال الخطابي « النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له ـ وبذلك حصر رسول الله ﷺ الدين فى النصيحة .

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم [٢] .

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » [٣] .

النصيحة لله هي الإيمان بالله ووحدانيته فلا تجعل لله ندا فى ذاته ولا فى صفاته ولا تعبد غيره أو تتوجه إليه بالدعاء ـ ملكاً كان أم شيخا ، نبياً كان أو وليا .. كل شيء لله وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه ، وأن الله لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه ـ فالنصيحة مردها للعبد يكسب خيرها ويجنى ثمار العمل بها .

والنصيحة لكتابه هى التصديق والإيمان بأنه كلام الله تعالى نهتدى بما فيه ونتدبر معانيه، ونحل حلاله ونحرم ما حرمه ، ونؤدى حقوق تلاوته ، ونتعظ ونعتبر بمواعظه وزواجره .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

والنصيحة لرسوله ﷺ « تصديقه فيما جاء به واتباعه فيما أمر به ونهى عنه وتعظيم حقه والعمل بشرعه وسنته » .

والنصيحة لأئمة المسلمين بإعانتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به ، وتذكيرهم بحوائج العباد .

... والمراد بأئمة المسلمين قادتهم فى تنظيم شئون الدنيا ، وفى إقامة معالم هذا الدين ، وأما عامة المسلمين بأن تدلهم على طريق الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر.

« تلك كانت أهم الأمور التي وجب علي المسلم الإحاطة بها قبل أن نتوجه إلي بعض الكنوز الربانية والنفائس الكريمة النبوية في ميراث حضرة النبي ﷺ » .

وهكذا .... دخل الناس فى دين الله أفواجا بعد نصر رسوله ﷺ . فقال بعضهم : أمرنا الله أن نحمده ونستغفره إذ نصرنا وفتح علينا- فقال عمر لابن عباس رضي الله عنهما : أكذلك تقول يا بن عباس ؟ قال بن عباس : لا .. هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر] .

قال عمر لا أعلم منها إلا ما تقول[1] .

والذى فسره بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أن الله أمر إذا فتح عليهم المدائن والحصون أن يحمدوا الله ويشكروه ويسبحوه ... وما فسر به بن عباس وعمر رضى الله عنهما أن هذه السورة نعى فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة أى «وأعلم أنك إذا فتحت مكة وهى قريتك التى أخرجتك ودخل الناس فى دين الله أفواجا فقد فرغ شغلنا بك فى الدنيا فتهيأ يارسول الله للقدوم علينا والوفود إلينا ، فالآخرة خير لك من الدنيا » :

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الضحى] .

وروى الإمام أحمد « وحدثنا أبواسحق عن الأوزعى حدثنى أبوعمار ، حدثنى جار لجابر بن عبدالله : قدمت من سفر فجاءنى جابر بن عبد الله فسلم على فجعلت أحدثه عن إفتراق الناس وما أحدثوا .. فجعل جابر يبكى ، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا[2] .

---

(١) تفرد به البخاري (ابن كثير ٤/ ٥٦١) .

(٢) ابن كثير ٤ / ٥٦٣ ، القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٧٥٧٥ .

ولما نزلت قرأها النبي ﷺ على أصحابه ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص ففرحوا واستبشروا ـ وبكى العباس ، فقال له النبي ﷺ : ما يبكيك يا عم ؟ قال : نعيت إليك نفسك . قال : « إنه لكما تقول » ـ فعاش بعدها ستين يوما ما رُئى فيها ضاحكاً مستبشراً ... وفى حجة الوداع أعلن رسول الله ﷺ كمال الرسالة وتمام النعمة فأكمل الله هذا الدين ـ وما عادت فيه زيادة لمستزيد ـ فهو المنهج الشامل الذى ارتضاه الله وقد كملت شرائعه وأحكامه ـ وأظهر الله دين الإسلام على سائر الأديان .

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة].

ويبكي عمر بن الخطاب ﷺ: قال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قال عمر : أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص ـ فقال له النبي ﷺ «صدقت»[٢] .

فقد أحس عمر بفراسته وبصيرته الواصلة وبقلبه المؤمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اقترب لقاؤه بالله ، وأنه قد دنا يوم الفراق واقترب...

ومع إكتمال الدين فإن المنهج الذى شرعه الله صار سارى المفعول إلى أن تقوم الساعة ... صالح لكل مكان وزمان ، يحتوى ويسع كل ما يستجد من تطورات وحضارات ورقى بين الأمم فى دنيا الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وتركنا رسول الله ﷺ ،، ولكنه ترك لنا ميراثاً من الأنصبة الذهبية والنفيسة ـ من عمل بها وآمن واتقى الله فيها فاز بسعادة الدنيا والآخرة .

روى بن ماجه وغيره عن العرباض بن ساريه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ـ فقلنا يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع فما تعهد إلينا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :

قد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك.... من يعش منكم فسيرى إختلافاً كثيرا ـ فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم والأمور المحدثات ـ فإن كل بدعة ضلالة، وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشيا ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حينما قيد إنقاد[١] .

---

(١) أخرجه الترمذي بمعناه وصححه (النص نقلا من القرطبي ٣/ ٢٦٥٨) .